

الفصل الأول

مدخل إلى العقيدة والإيمان

المبحث الأول : مفهوم العقيدة.

المبحث الثاني: حاجة الإنسان إلى العقيدة الصحيحة.

المبحث الثالث: مزايا العقيدة الإسلامية وخصائصها.

المبحث الرابع: مقتضيات العقيدة الصحيحة.

المبحث الخامس: المفهوم الشامل للإيمان.

المبحث السادس: حقيقة الإيمان.

المبحث السابع: علاقة الإيمان بالعمل .

المبحث الثامن: ثمرات الإيمان الصحيح.

المبحث الأول

مفهوم العقيدة

ما العقيدة ؟

العقيدة هي: مجموعة من قضايا الحق البديهية المسلمة بالعقل، والسمع، والفطرة، ويعقد عليها الإنسان قلبه، يثنى عليها صدره جازماً بصحتها، قاطعاً بوجودها وثبوتها، لا يرى خلافها أنه يصبح أو يكون أبداً.

وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه، وعلمه به، وقدرته عليه، ولقائه به، بعد موته ونهاية حياته، ومجازاته إياه على كسبه الاختيارى وعمله غير الاضطرارى، وكاعتقاده بوجود طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهيه من طريق كتبه ورسله طاعة تزكو بها نفسه، وتهذب بها مشاعره، وتكمل بها أخلاقه، وتنظم بها علاقته بين الخلق والحياة.

وكاعتقاده بغنى ربه تعالى عنه، وافتقاره هو إليه، وفي كل شأنه حتى فى أنفاسه التى يرددها، فبالله تعالى حياته، وعليه وحده توكله واعتماده، إذ هو محط رجائه إذا طمع، ومأمن خوفه إذا خاف، بحبه يحب، ويبغضه يبغض.

وهو مولاه الذى لا مولى له غيره، ومعبوده الذى لا معبود له سواه، لا يرى ربوبية غيره، ولا يعتقد ألوهية سواه.

العقيدة الصحيحة:

تعتبر عقيدة التوحيد الصافية الغالية من أهم مقومات الوحدة بين المسلمين، فهى عقيدة نائرة، معجزة، متدفقة بالقوة والحياة، مقلبة للأوضاع، مدمرة للآلهة الباطلة، لم تنل ولن تنال الإنسانية مثلها إلى يوم القيامة.

ولقد كان الإنسان قبل الإسلام يسجد لأشياء تافهة لا تضر ولا تنفع، ولا تعطى ولا تمنع ﴿يَتَأْتَى لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].
﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦] .

كان العرب قبائل متناثرة لا تجتمع على شىء على الرغم من وجود كل مقومات التجمع: من وحدة الأرض، ووحدة اللغة، ووحدة الثقافة، ووحدة التاريخ، ووحدة التصورات، ووحدة التطلعات.

من هنالك انتشلهم الإسلام، لا ليكونوا تجمعاً قومياً، ولا ليكونوا تجمعاً وطنياً تحت قيادة زعيم منهم، ليكونوا منهم دولة موحدة ذات كيان وحدود، ولكن لينشئ منهم أمة العقيدة التى استحققت من الله وصفها بهذا الوصف العظيم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والذى يلحظ النقلة الهائلة التى انتقلها العرب من شتاتهم المتناثر، ليكونوا خير أمة أخرجت للناس، لابد أن يأخذه العجب من هذا التحول الهائل فى فترة من عمر الزمن كأنها لحظات.

إن العقيدة الإسلامية هى أغلى ما يمكن أن تقوم عليه وحدة المسلمين، فهى الوشيجة الحقيقية التى تقوم عليها الأمة الحقيقية.. الأمة الخيرة.. ثم تنضوى تحتها كل العلاقات الأخرى، علاقات الأرض، واللغة، والجنس، وقرابة الدم، فتكون هذه روافد إضافية إذا وجدت ولكنها لا تكون هى التى تكون الأمة - ولو اجتمعت كلها - فى غياب العقيدة، بينما تكون العقيدة وحدها - ولو غابت الروابط الأخرى كلها - هى الرباط الذى تتكون حوله أمة تتأخى بأخوة العقيدة، وتترابط برباط الإيمان، فتكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْنَتُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُم بُنْيَنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].
والمؤمنون بهذه العقيدة كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد

بالحمى والسهر، يقول الرسول الكريم ﷺ: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »^(١).

وروى النعمان بن بشير رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « إنما مثل المؤمنين في تواصلهم وتراحهم وما جعل الله فيهم من البركة، كمثل الجسد إذا وجع تداعى سائر جسده بالسهر والحمى »^(٢).

تلك هى الوشيعة التى نبه القرآن فى أكثر من موضع على أنها هى العقيدة، وهى المعول عليها، والتى تفصم الروابط الأخرى وتبقى هى لا تنفصم . فقد جاء فى قصة نوح عليه وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام قوله جل شأنه: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴾ ^(٤٥) قَالَ يَنْوَحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْمَعْ لِكَ لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ^(٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّيْ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِيْ بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِيْ وَتَرْحَمْنِيْ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ^(٤٧) [هود: ٤٥-٤٧].

ولقد دعا نوح ابنه - وكان فى معزل - ليركب فى السفينة الناجية، فأبى!! فأدركه الطوفان. فلما قضى الأمر واستوت السفينة على الأرض وقد نجا من نجا، وهلك من هلك، ملأت الحسرة قلب نوح على ولده الهالك، وراح يسأل ربه كيف غرق وهو من أهله، وقد وعده الله أن ينجو أهله، ووعد الله حق لا ريب فيه؟!

هنا ينبه الله سبحانه وتعالى أن الوشيعة الحقيقية ليست وشيعة الدم.. إنما هى وشيعة العقيدة.. ﴿ يَنْوَحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ قد انفصمت وشيعة العقيدة؛ حيث أبى الابن أن يؤمن، فانفصمت لها كل وشيعة أخرى، ولم يعد ابن نوح من أهله، مع أنه ابنه كما يؤكد القرآن الكريم باللفظ الصريح ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾.

(١) متفق عليه، انظر صحيح البخارى، ج ١٢، ص ٤٦.

(٢) رواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان (٢/ ٦٢، ٧٤).

إذ العبرة بأهلية الدين لا بأهلية القرابة. (والغير) في قوله: ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ عائد على ابن نوح عليه السلام أى: إنه ذو عمل غير صالح، أو إنه لما انغمس في المعاصي كان كأنه عمل غير صالح، ومن باب وصف الأشخاص بالمصادر مبالغة كما يقال: زيد عدل ^(١).

وفي قصة إبراهيم - عليه وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام - جاء قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلْعَدَوُةٌ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وجاء خطاب الله تعالى للمؤمنين كافة إلى يوم القيامة ناهياً لهم من أن يركنوا إلى قرابة الدم، ويتركوا محبة الله ورسوله، والجهاد في سبيله، وينذر الذين يخلون بالموازن الربانية بالعذاب الأليم ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [١٣] قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

أهمية علم العقائد:

إن هذا العلم هو أهم العلوم على الإطلاق، بالنسبة للفرد المسلم؛ لأنه علم العقائد الإسلامية. والعقائد في الإسلام هى الأصول التى تبنى عليها فروعه، والأسس التى يقوم عليها بنيانه، والحصون التى لا بد منها لحماية عقيدة المسلم من أخطار الشك، وأعاصير التضليل والتزييف.

وكثيراً ما سمعنا ورأينا أنواعاً من الانحرافات فى الفكر والقول والسلوك لم يكن لها من سبب إلا البعد عن فهم أصول هذا الدين، وركائزه التى قام عليها،

(١) تفسير البضاوى، ج ٢، ص ٣١٠.

والتي لا بد من الإيمان بها، ليفهم بها الدين، وليجاب بها عن جميع التساؤلات التي لم يكن لها سبب سوى الجهل بقضايا الإيمان ومسائله.

وقضايا الإيمان هذه هي التي جاء بها الرسل، على مدى التاريخ الإنساني كمبدأ لا بد منه حتى تبنى عليه جميع قضايا الدين بعد ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن المعلوم أن جميع الأعمال الصالحة التي يعلمها أى إنسان ابتغاء وجه الله تعالى موقوف قبولها عند الله على صحة العقيدة التي يتكلم عنها هذا العلم؛ لأن الانحراف عن العقيدة انحراف عن الإيمان، والانحراف عن الإيمان هو الكفر، والله تعالى لا يقبل من كافر عملاً^(١).

قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ۖ فَيُمْتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ويكفى لإدراك الأهمية الكبرى لهذا العلم أن قضاياها كلها هي القضايا الفاصلة في الحكم على الإنسان بالإيمان أو الكفر والفسوق، وبالنجاة أو الهلاك، وبالسعادة أو الشقاء.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ۖ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۖ ﴾ [١] إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ ﴿٢﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۖ ﴿٣﴾ [البينة: ٦-٨].

(١) حسن أيوب: تبسيط العقائد الإسلامية، القاهرة، دار التراث العربي، ١٤٠٦ هـ، ص ٢٠.

لذلك قال جميع علماء الإسلام: إن هذا العلم مفروض تعليمه وتعلمه على الرجل والمرأة، وواجب على كل مسئول من والد ووالدة ومعلم ووصى ومرب وأمثالهم أن يهتموا بتنشئة الأطفال على فهم مبادئه، وعلى أن يعطى كل حسب قدرته العقلية والنفسية، فيتدرج في تعليمه كما يتدرج في تعليم أى علم ذى أهمية وشأن.

موضوعات هذا العلم:

الموضوعات التى يبحث هذا العلم فيها، هى:

- ١- ذات الله تعالى: لمعرفة ما يجب فى حق الله، وما يستحيل، وما يجوز.
 - ٢- ذوات الرسل عليهم الصلاة والسلام: لمعرفة ما يجب فى حقهم، وما يستحيل، وما يجوز.
 - ٣- الأمور الغيبية: وهى التى لا يمكن الوصول إليها لمعرفة الإيمان بها إلا عن طريق كتاب الله تعالى، أو حديث رسوله ﷺ وذلك مثل : كتب الله تعالى، وملائكته، ورسله، واليوم الآخر، والجنة والنار .. إلخ.
- وتحديد موضوعات العقيدة جاء من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .
- وقال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ [البقرة: ٢٨٥] .
- وقال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝ [القمر: ٤٩] . ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ [البقرة: ٣-٥] .

وفى حديث طويل سأل جبريل النبى ﷺ عدة أسئلة تعليمية وكان منها قوله: فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم

الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١)، وبذلك تدرك أن أركان الإيمان هي : الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره .

الواجب والمستحيل والجائز:

هناك عدة كلمات مهمة في هذا الباب منها: الواجب - المستحيل - الجائز - والمقصود بها الواجب العقلي، والمستحيل العقلي، والجائز العقلي، وإليك تحديد معانيها؛ ليتضح لك طريق البحث وإثبات قضايا هذا العلم.

فالواجب العقلي: هو الأمر الثابت الذي لا يتصور العقل انتفاءه، وهو قسمان:

١ - ضروري بديهي يدركه كل إنسان بعد النظر والتفكير، مثل إثبات قِدَمِ الإله، وبقائه، ووحدانيته وجميع صفاته الكمالية.

٢ - نظري، يعنى أن يصل الإنسان إليه بعد النظر والتفكير، وهو الإيمان والتصديق بما تقدم، دون شك أو تردد في قبول ذلك.

والمستحيل العقلي: هو الأمر الذي لا يتصور العقل وجوده، وهو قسمان كالواجب:

١ - ضروري بديهي: وهو ما يدركه العقل بدون نظر وبحث مثل كون الأب أصغر من ابنه، وكون الواحد عددًا من الاثنين.

٢ - نظري، وهو ما يصل العقل إليه بعد نظر واستدلال، مثل : استحالة أن يكون الله متعددًا، وأن يكون مخلوقًا، وأن يموت .. إلخ.

والجائز ويسمى الممكن: هو في نظر العقل ما يقبل الثبوت والانتفاء والوجود والعدم لذاته، وذلك مثل حياة الإنسان وموته وصحته ومرضه، وغناه وفقره .. إلخ.

ويلاحظ أننا نسبنا الوجود والاستحالة والجواز إلى العقل، فالعقل الإنساني إذاً هو الذى يبحث، وهو الذى يحكم، وعلى أساس حكمه تبني النتائج، فلا مجال هنا في إثبات العقيدة للتقليد، ولا للوراثة، ولا للأهواء والشهوات. إنها المجال مجال

(١) رواه الخمسة إلا البخارى.

العقل السليم الحر غير المغلول وغير المكبوت، وسوف نجد في مسيرتنا مع هذا العلم أننا نستدل بآيات من كتاب الله تعالى، فلا يقال ولا يحق لأحد أن يقول: كيف تستدلون بكتاب الله تعالى على قضايا قررتم أن العقل هو الحكم فيها؟

لأننا نقول: إننا نستدل بكتاب الله تعالى فيما يعرضه علينا من آيات تحرك عقولنا وتفتح لها مجالات البحث والمناقشة والمحاورة، ثم نترك الحكم على النتائج لعقولنا، فكتاب الله لنا هو النور الذى يشع، فندرك به السبيل ونعرف به جوانب الطريق ومعالمه، وهو الهدى للضالين، والفيصل فى قضايا العالمين. وما تخبط المتخبطون فى أمور الدين إلا بسبب اعتمادهم على العقل وحده وبعدهم عن كتاب الله وهدى رسوله ﷺ تقليدًا للفلاسفة وأشياعهم من متكلمى المسلمين.

ويكفيك دليلاً على أن كتاب الله يسلك هذا السبيل بالنسبة للنائن عن قول الله لنبية ﷺ: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [٢١] لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢].

من الذى يجب عليه معرفة الله، ومعرفة شرعه، ومعرفة العقيدة السليمة؟

تجب هذه المعرفة على كل مكلف:

والمكلف هو البالغ العاقل، سليم الحواس، الذى بلغته الدعوة، فالمعرفة: لا تجب على الصبى، ولكن يجب على وليه تعليمه العقيدة ومبادئ الدين، حسب قوة فهمه، لينشأ مسلماً واعياً سليم العقيدة، ولتحفظه العقيدة من الزيغ إذا بلغ.

ولا تجب المعرفة على المجنون، ولا على فاقد السمع والبصر معاً؛ لأنه لا طريق لمعرفته، فإن وجدت طريقة للمعرفة وجبت عليه، كما لا تجب المعرفة على من مات قبل بعثة الرسول ﷺ.. يعنى مات فى فترة ليس فيها رسول مبعوث أو يوجد رسول ولكنه مرسل إلى قوم دون آخرين، فالمرسل إليهم هم المكلفون المسئولون، إذا بلغتهم دعوة رسولهم. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

حدود المعرفة السليمة:

المعرفة السليمة التي يصير الإنسان بها مؤمناً إيماناً صحيحاً هي الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل.

فالمعرفة غير الجازمة معرفة مرفوضة، وصاحبها لا يعتبر مؤمناً؛ لأن العقيدة مبنية على الجزم: فلا يعتبر مؤمناً من كان واهماً أو شاكاً أو ظاناً. ولا يعتبر مؤمناً من جزم بعقيدة مخالفة للواقع، كاعتقاد قدم العالم، أو أن الله متعدد، أو أن القيامة واليوم الآخر لن يوجدوا مستقبلاً.

ويعتبر مؤمناً عاصياً من عرف الله تعالى واعتقد وجوده وصفاته ولكنه لا يعرف دليلاً على وجود الله، مع استطاعته النظر ومعرفة الدليل، ولو إجمالاً كأن نقول له: ما الدليل على وجود الله؟ فيقول: الدليل على ذلك وجود هذا العالم مثلاً.

فالدليل الإجمالى فرض عين على جميع المكلفين. أما الدليل التفصيلى فإنه فرض على بعضهم فقط، لوجود طائفة متخصصة تستطيع الدفاع عن الدين وعن العقيدة، فهو فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن باقى الأمة.

وبعض العلماء يرى أن إيمان المقلد .. « وهو المؤمن بغير دليل إجمالى ولا تفصيلى » إيمان مقبول وصحيح إذا حصل منه الجزم بالعقيدة، بحيث لا يتردد فيها ولا يتزحزح عنها ولو تردد وتزحزح الإنسان الذى اعتمد عليه المقلد فى عقيدته وتقليده. ودليلهم على ذلك أن النبى ﷺ كان يقبل إيمان من يؤمن بدون سؤاله عن الدليل. وذلك ثابت فى عدة أحاديث صحيحة.

المبحث الثانى

حاجة الإنسانية إلى العقيدة الصحيحة

إن الإنسان آية الله فى خلقه، طبعه ربه على هذا النحو العجيب وفطره على هذه الصبغة الفذة، مقترنة بعديد من الغرائز والميول، وحينما تشده الأولى إلى زكاة النفس، واستواء الفطرة، وقصد السبيل، فإن الثانية تشده إلى النقيض تماما بتمام، وبين هذا وذاك يتطلع الإنسان ويرنو إلى ما يحفظ عليه نقاء معدنه، وصفاء جوهره، وزكاة نفسه، وطهارة قلبه، واعتدال خلقه، وقصد سلوكه، ويجعله على طول الخط سوى المنهج، قوى السبيل، زكى الباعث، نبيل المقصد، متعلقا بمعالى الأمور، نائيا عن سفاسفها، يتطلع إلى ذلك ويهفو إليه، فلا يجده إلا فى رحاب الإيمان بالله، وأحضان الطاعة له، وظلال القرب منه.

والإنسان بفطرته لا يملك أن يستقر فى هذا الكون الهائل، فلا بد له من ارتباط معين بهذا الكون، يضمن له الاستقرار فيه، ومعرفة مكانه فى هذا الكون، الذى يستقر فيه^(١)، فلا بد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله، وتفسر له مكانه فيما حوله، فهى ضرورة فطرية، شعورية، تقوم بالتأصيل لجوهر الفطرة ومتابعة بعثها، لضمان استمرار حركتها وعملها وانطلاقها^(٢).

ومن هنا: كانت حاجة الإنسان إلى العقيدة حاجة فطرية مركوزة فى فطرته، ومغروسة فى شعوره، ومخلوطة بدمه وعصبه، ولكنه قد يضل عن إدراك هذه الحقيقة، فيشقى ويحار، ويفقد الاستقرار^(٣).

هذه الحاجة الفطرية فى الإنسان إلى الدين، هى التى يتحقق بها إدراك الإنسان لحقيقة مقامه فى هذه الحياة، ورسالته وعمله ودوره^(٤).

(١) أحمد السايح: العقيدة فى الإسلام، مجلة "جوهر الإسلام"، العدد الثانى والثالث، من السنة الثانية ١٣٩٦ هـ، تونس، ص ١٦.

(٢) أحمد السايح: حاجة الإنسانية إلى ظهور الإسلام، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٤١١ هـ، ص ٦٥.

(٣) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٤) أحمد محمد جمال: الدين فطرة وميثاق، كتاب ندوة المحاضرات لموسم حج سنة ١٣٨٩ هـ، ط: رابطة العالم الإسلامى، بمكة المكرمة، ص ٣٠٠.

وقد أودع الله - سبحانه وتعالى - في الإنسان ما يستطيع به إدراك الحقائق الكبرى في الوجود^(١) وندبه الله - سبحانه وتعالى - للقيام بمهمة التعرف على هذه الحقائق التي يراها الحس والعقل والوجدان، في الآفاق وفي النفس، وفي كل شيء^(٢) ففي الأرض آيات للمؤمنين، وفي السماء مثلها وأعظم. فالفطرة الإنسانية السليمة هي التي تتوجه إلى الكون بروح متفتحة تكشف ما فيه من قصد وتصميم وإبداع، وتنتهي إلى إدراك مكانها من هذا الوجود وتحديد كيفية سلوكها فيه، ومن خلال هذا التصور تتحدد علاقة الإنسان بربه ﷻ^(٣).

فالإنسان لا غنى له عن الدين؛ لأنه يحسه في نفسه، شعوراً ووجداناً، ويشير إلى هذا الشعور ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة»^(٤).

وقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

ففي هذه الآية: بين الله - تعالى - أنه أخرج من صلب آدم وبنيه ذريتهم نسلًا بعد نسل، على هيئة الذر، وذلك قبل خلقهم في الدنيا وأشهدهم على أنفسهم قائلًا لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فأجابوا: ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾ بذلك، فالله - سبحانه وتعالى - أشهدهم على ربوبيته، حتى لا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين، أو غير عالمين^(٥).

(١) قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

(٢) قال تعالى: ﴿سُئِرِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

(٣) عبد الكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلامية، ط: الثالثة مؤسسة الأنوار بالرياض، سنة ١٣٩٤ هـ، ١٩٧٤ م، ص ١٦.

(٤) رواه البخاري، ج: ٣، ص: ٢١٩.

(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج: ٢، ص: ٢٦١-٢٦٤.

فالإيمان بالله فطرة فطر الله الناس عليها، وإنما يضلون عنها بعض الوقت أو كل الوقت، ثم يعودون إليها ولو عند فراق الحياة، أو عند نزول الكوارث والأحداث، فقد كان فرعون يدعى الألوهية، ويقول لقومه: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٤]. وسام بنى إسرائيل سوء العذاب، وكفر بموسى، وإله موسى، ولكنه عندما أدركه الغرق، قال: ﴿ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠].

والمشركون بالله، والكافرون به، في كل الأجيال، كانوا يعبدون الأصنام ويستقسمون بالأزلام، فإذا مسهم الضر في البر أو البحر، لجأوا إلى الله يدعونه ويسألونه النجاة ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ﴾ [يونس: ١٢].

ومن هذا يتبين: أنه يوجد في طبيعة تكوين الإنسان استعداد فطرى لمعرفة الله وتوحيده، فالاعتراف بربوبيته متأصل في فطرة الإنسان، وموجود في أعماق روحه، فقد أنشأهم الله على الاعتراف بالربوبية له وحده، فالاعتراف بربوبية الله وحده، فطرة في الكيان البشرى، فطرة أودعها الله الخالق في هذه الكينونة، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة، فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر، وخالق البشر، منذ كينونتهم الأولى^(١).

والوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته، لا يسعه إلا أن يطيع ربه في ولاء لا يشوبه استنكاف، ولا يطاوله كائن، بل إنه جميعا من أعلاه إلى أسفله يهتف في البداية بلغة المقهور أمام عظمة القاهر، وهتاف العابد تجاه قدسية المعبود بما سجله الحق في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١].

والإنسان وإن كان يساوى الكون في العبادة بفطرته، فإنه ينبغي عليه أن يفوقه منزلة، وأن يعلوه فيها درجات، تتناسب وتركيبه، وتكوينه المتميز بالعقل والإرادة،

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج: ٣، ص: ١٣٩١.

والاختيار، والميول، والنزعات، والرغائب، بيد أن الإنسان من طبعه أن ينسى أحياناً، وأن يغفل أحياناً، وأن يجحد أحياناً، وأن يكفر أحياناً؛ لأن امتزاج الروح بالجسد، وانشغال الإنسان بمطالب جسده، وبمطالبه المختلفة، التى تستلزمها حياته فى الدنيا، وعمارة الأرض، قد جعلت من معرفة الإنسان بربوبية الله، واستعداداته الفطرى للتوحيد، عرضه لأن تطمره الغفلة، ويغمره النسيان، ويطويه اللاشعور فى أعماقه، ويصبح الإنسان فى حاجة إلى ما يوقظ هذا الاستعداد الفطرى، ويبعد عنه النسيان، ويبعثه من أعماق اللاشعور، فيظهر جلياً واضحاً فى الإدراك والشعور، ويتم ذلك عن طريق تفاعل الإنسان مع الكون^(١) وتلك فطرة فطر الله الناس عليها، وصبغة صبغهم بها، لا فكاك لهم منها، ولا شذوذ لهم عنها.

فعاطفة التدين أو الاعتقاد بدين من الأديان أمر غريزى، ومشارك بين الناس، عامة فى كل عصر ومكان، فإنه لم تخل جماعة من الناس فى أى زمان من عقيدة دينية على نحو ما - « وقد أثبت التاريخ أنه قد وجد فى الماضى السحيق جماعات إنسانية من غير فلسفات وعلوم وفنون، ولكن لم توجد قط جماعة إنسانية من غير دين »^(٢) - إذ لا بد فى حياة الناس من نظم تلم شتاتها، وترفه حياتها، وتضمن لها أسباب النهوض والتقدم، ويعيش الناس فى ظل هذه النظم على قواعد الحق والعدل، فى أمن وسلام، وقد كرم الله الإنسان بالعقل لكنه أودع فيه نفساً أماراً بالسوء، وهو يعيش فى صراع بين عقله الهادى إلى الصلاح، ونفسه الأماراً بالسوء، فكان من تمام نعمته عليه أن وضع له النظم التى توصله إلى التغلب على النفس، وسد منافذ الشيطان إليها، فحملة أمانة التكليف، وأخذ عليه العهد بأن يعبد ولا يشرك به شيئاً، وأمهده بهداية الرسل عليهم الصلاة والسلام^(٣).

(١) محمد عثمان نجاتي: القرآن وعلم النفس، بتصرف يسير، ط: دار الشروق، بالقاهرة، سنة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م، ص ٤٧.

(٢) محمد يوسف موسى: الإسلام والحياة، ط: مكتبة وهبة بالقاهرة، سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م، ص ٧.

(٣) شوكت محمد عليان: الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ط: دار الرشد بالرياض، سنة ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م، ص ١٢٦.

إذن « لكى تتحقق الحكمة الإلهية فى خلق الإنسان، ويتبين المصداق الحق لقوله تعالى إرشاداً للملأ الأعلى: ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]. لابد لقوة الخير فى الإنسان من مدد يعينها ويغريها على سد منافذ الشر والطغيان»^(١).

ومن هذا يتبين: أن الدين للإنسان من الشئون الضرورية التى لا حياة له إلا بها^(٢). والله - سبحانه وتعالى - قد خلق الناس، ولم يتركهم وشأنهم بل اختار لهم نظماً وأحكاماً تسعدهم فى الدنيا والآخرة؛ وذلك لأن الإنسان عاجز عن إدراك المغيبات، ويتأثر تفكيره بمؤثرات من الزمان والمكان والمجتمع، وهو عاجز عن حمل غيره على طاعته، لعدم قدرته على القهر الذى يرغم الناس على كمال الطاعة، ولهذا جهل الله سبحانه وتعالى فى كل أمة رسولاً منها، وأيده بالمعجزات، وأمهده بتعاليم السماء، لينشر الخير ويعالج الشر ﴿ لَعَلَّ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥]. وقد شرع الله - تعالى - لخلقه ما يناسب حالهم، ويتلاءم مع ظروف حياتهم، وقوة إدراك عقولهم، وقوة احتمالهم^(٣).

وإذا كان الدين والتدين أمراً غريزياً وفطرياً فى الإنسان، فى كل زمان - كما عرضنا - فإن الدين الإسلامى هو: الدين الحق الذى رضى الله - تعالى - للناس جميعاً، والآية الكريمة التى عدت الدين عند الله الإسلام ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] تعنى: مجموعة المبادئ الإسلامية وتعاليم الإسلام.. فالإسلام مر بمراحل كبيرة عبر أنبياء الله ورسله إلى أن انتهى إلى المرحلة المتكاملة فى رسالة محمد ﷺ التى جاءت إلى الإنسانية كلها. إذن رسالة الإسلام هى الإسلام الشامل للإنسان فى وحدة إيمانها بالله، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. ولهذا كان الإسلام يشتمل على امتداد زمانى فى الفكر الدينى، يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها، ويشتمل

(١) محمد شلتوت: من توجهات الإسلام، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٥٩ م، ص ٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤.

(٣) شوكت محمد عليان: الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، ص ١٢٧.

على شمول موضوعى يغطى مجالات الحياة جميعا، ويشتمل على شمول يضم الأديان كلها، ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها^(١).

فالدyanات وإن تعددت فى الفروع والتكاليف والأعمال، فقد اتحدت فى المصدر الذى صدرت عنه، وهو الله - تعالى - واتحدت - أيضا - فى الأصل الذى دعت إليه، وهو التوحيد، فالقدر المشترك بين الرسالات جميعا هو: تصحيح العقيدة أولا، ثم معالجة الأمراض الخلقية والاجتماعية الموجودة فى تلك البيئات، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

ولقد جاء الإسلام فى جانبه الإيمانى، يؤكد هذه الأسس، التى أكدها كل نبي، ولكنه فى الجانب الذى يستتبع الشريعة، جانب الالتزام والعمل كان الإسلام الفصل الأخير فى تكامل التشريعات.

وهذا الطابع الشمولى الملتقى فى أسس العقيدة، والمتكامل فى التشريع هو الذى جعل الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر، لعل هذا هو السر الذى جعل الإسلام كلمة تختص بالدين الذى جاء به رسول الإنسانية محمد ﷺ^(٢).

ووحدة الإيمان حقيقة تفرضها وحدة المصدر بصورة قاطعة، لا تقبل الجدل، أو التشكك، ولا يغير من واقعها وجود فواصل البعد الزمنى بين الأنبياء، الذين أرسلهم الله إلى عباده^(٣).

(١) أحمد السايح: الفضيلة والفضائل فى الإسلام، ص ٣٠، ط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

(٢) أحمد السايح: الفضيلة والفضائل فى الإسلام، ص ٢٨-٢٩.

(٣) يوسف القرضاوى: العبادة فى الإسلام، ط: المكتب الثقافى، بالقاهرة، ص ١٨.

فالإيمان بالله - سبحانه وتعالى - ليس غريزة فطرية، بل هو ضرورة، فالدين عنصر ضرورى، والإنسانية بحاجة إليه، للكمال النفسى والروحى، فالإنسان جسم وروح، والجسم يتغذى بالطعام والشراب، بينما تتغذى الروح بالإيمان والعقيدة، وعلى ذلك فالإسلام منهج شامل لأمر الدنيا والآخرة، محقق لمصالح الفرد والجماعة، قوامه الشريعة والعقيدة والأخلاق، فليس ديناً فقط، ولكنه دين ونظام وحياة، لا تفصل فيه العلاقة بين الله والإنسان، عن الصلة بين الإنسان والإنسان، وهو ينظمها جميعاً^(١).

فالعقيدة الإسلامية ضرورة للإنسان، وذلك لرفع مستواه والمحافظة عليه من الانحراف المادى والإلحادى.

ومن القواعد المقررة أن الإنسان مدنى بطبعه، معنى ذلك أن الإنسان بفطرته يميل إلى التعارف والتعايش مع غيره، ولذلك جعل الحق سبحانه وتعالى التعارف بين الناس من أهم أسباب خلقه لهم، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [الحجرات: ١٣]. هذا التعارف ليس مقصوداً لذاته، وإنما جعل أولاً غذاء لطبيعة الإنسان، وثانياً: وسيلة للتعارف على كل ما فيه إسعاد البشرية، وتحقيق حياة أفضل لأفرادها فى جانبها المادى والفكرى، ويُنَّ ذلك المفكر محمد عبد الله دراز، فيقول: «إنه لا قيام للحياة فى الجماعة، إلا بالتعاون بين أعضائها، وهذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته، ويحدد حقوقه وواجباته، وهذا القانون لا غنى له عن السلطان نازع ووازع يكفل مهابته فى النفوس، ويمنع انتهاك حرمة^(٢).

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر - دون أن نجانب الصواب: - أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة الدين، أو تدانيها فى كفالة احترام شرع الله وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والثام أسباب الراحة والطمأنينة، والسر فى ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن أفعاله وأعماله الاختيارية يتولى قيادتها

(١) أنور الجندى: منهج الإسلام فى بناء العقيدة والشخصية، ط: دار الاعتصام بالقاهرة، ص ٢٩.

(٢) محمد عبد الله دراز: الدين، ص ٩٨.

شئ لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع في يده ولا في عنقه ولا يجرى في دمه، ولا يسرى في عضلاته وأعصابه، وإنما هو معنى إنساني روحاني اسمه الفكر والعقيدة، وقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية، بل يتأثران بها^(١).

وليست قوانين الجماعات، ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق، وتؤدي الواجبات على وجهها الكامل فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السقوط أو السجن، أو العقوبة المالية لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون.

والقانون إما إلهي أو وضعي: لأن كل حضارة شطران: شطر روحي، وشطر مادي، فالشطر المادي الذي يعتمد على الحس والعقل، وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالشطر الروحاني أو النظري، والشطر النظري: العقيدة والأخلاق، والتشريع، ونظام المجتمع^(٢). ولذلك جاءت العقيدة الإسلامية كاملة هادية للعقل في الجانب النظري، فشملت التشريع، والأخلاق، ونظام المجتمع، ومن خصائص الوحي فيما يتعلق بالتشريع: أنه هاد للعقل، وكما أن الدين هاد للعقل، كان لابد في استخدام العلم من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية، وعمارة الأرض، لا إلى نشر الشر والفساد، ذلكم الرقيب هو: العقيدة والإيمان.

ولا يخفى على أهل العلم: أن من الخطأ المبين أن يظن بعض الناس أن في نشر العلم والثقافات وحدها ضماناً للسلام، والرخاء، وعوضاً عن التربية والتهذيب الديني والخلقي^(٣). ذلك أن العلم سلاح ذو حدين، يصلح للهدم والتدمير، كما يصلح للبناء والتعمير^(٤) فكما يستعمل للخير، يستعمل كذلك للشر، فلا بد للعلم من تربية عالية، وتوجيه سديد، وإيمان راسخ يوجه المجتمع، وذلك أن وظيفة العلم

(١) المصدر السابق، ص ٩٨.

(٢) د. عبد الحليم محمود: الإسلام وتنظيم المجتمع، ط: دار الكتاب العربي، مصر، ص ٥.

(٣) د. محمد عبد الله دراز: الدين، ص ٩٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٩٩.

محصورة في الجانب الحسى المحض فهو يقف عند حدود لا يتجاوزها، بينما وظيفة الدين بالحياة ذات مجال رحب. فالإسلام بما حواه من هداية إلهية وتشريعات سماوية يكفل للمجتمع الإنسانى كل عوامل السعادة، والأمن، والاستقرار، ولا يكون ذلك عن تشريع وضعى، ولا يضعه فرد، أو جماعة معينة؛ ذلك لأن الإنسان مهما سما فكره ونضج عقله، لا يمكن أن يحيط بكل ما يوفر للإنسانية أمنها واستقرارها.

والحق، أن الدين الإسلامى فيه صلاح للناس جميعاً حتى الذين لم يرزقوا حظاً وافراً من التفكير العقلى السليم؛ ولذلك كان الوحي الإلهى رحمة عامة لجميع الناس، ولهذا ترى الدين ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية، نراه كفيلاً بصدور صاحبه فى أقواله وأعماله عن عقيدته، وضميره ونفسه، وعن مراقبته الله فى السر والعلن، لا خوفاً من الناس، أو عقاب القانون الوضعى، هذا العقاب الذى يفلت منه الكثير من الناس^(١).

والله الذى خلق الإنسان، وركب فيه طبائعه ونوازعه، هو خير بكل علله، وأدوائه، والعليم بوسائل شفائه، وهو وحده الذى يقدر أن يضع للجتماعات الإنسانية من الشرائع والنظم ما يحقق لها أسباب السعادة، وجميع وسائل الأمن والاستقرار، وذلك بالدين الذى يدعو إليه، فهو السلطان المهيمن على نفوس المؤمنين به، ويحملهم على الأخذ بتعاليمه ويدفعهم إلى القيام بما سنه لهم من تشريع وتنظيم ويدفعهم إلى التحلى بالفضائل، ويحول بينهم وبين ارتكاب الرذائل، وليس هناك وراء الدين شىء يهيمن على النفوس، غير نظام خالق النفوس^(٢).

فالإسلام نظام ربانى، يقوم على مبادئ أساسية، رضيها الله لعباده دستوراً يقودهم فى دنياهم إلى حياة كريمة، ويعدهم فى آخرهم لميراث جنة عرضها السماوات والأرض.

فالإسلام هو الرابطة التى جمعت البشرية على الإيمان بالله واليوم الآخر ذلك أن القصد من الدين ليس إلا تركية النفس، وتطهير القلب، وظهور روح الامتثال

(١) د. محمد يوسف موسى: الإسلام والحياة، ص ٨.

(٢) د. محمد حسين الذهبي: الدين والتدين، دراسة بمجلة البحوث الإسلامية، ج: ١، الصادرة سنة

١٣٩٥ هـ، ط: دار الإفتاء والبحوث بالرياض، ص ٥٤.

والطاعة، واستشعار عظمة الله، وإقرار الخير والصلاح في الأرض، على أساس قوى متين، من رباط العبد بخالقه^(١).

فهو إذن مطلب إنساني، رفيع يغذى جانب الروح، ولا ينسى حاجة العقل، وبعبارة أخرى: هو مطمع العقل، وغاية الروح، وبجانب ما للدين من وظائف نفسية تجعل منه غذاء ضرورياً لقوى النفس، وعصارة مقومة لحيويتها توجد له وظائف اجتماعية، لا يكون موضوعها الفرد، وإنما يكون موضوعها المجتمع ككل^(٢).

وهكذا يتبين للباحثين والدارسين: أن العقيدة الإسلامية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية، في ملكاتها ومظاهرها، ومن هنا تنبع حاجة البشر إلى الدين من طبيعة الإنسان نفسه، فقد خلقه الله - تعالى - ومنحه طبيعة الكائن المتكيف، وعلى ذلك فحاجة الإنسانية إلى الدين نزعة فطرية وأصلية ركبت فيه، وفطر عليها؛ ولذلك يكون الدين هو الرقيب الذاتى داخل النفس، يدفع الإنسان إلى مراقبة الله، الذى يعلم السر وما تخفى الصدور فيكون دافع الدين والاعتقاد شاملاً لجميع القوى المختلفة: الجسمية، والروحية، والنفسية، والخلقية، والاجتماعية.

وبعد هذا العرض، يمكن للإنسان أن يستوضح وظائف الدين وحاجة البشرية إليه.

فالدين يزكى النفس، ويظهرها، ويقيم في حواسها الوازع القوى الذى يحول دائماً بين الإنسان، وبين نوازع السوء والضلال فيه، وذلك أنه يشعر دائماً بمراقبة الله له في كل شىء، ومن هنا تزكو نفسه بفعل الخير وعمله، والبعد عن الشر، وهذا مبلغ ما ينبغي أن تسعى الإنسانية إليه.

فالإنسانية بحاجة إلى الدين؛ لأنه جزء من فطرة الإنسان وطبيعته ولا يمكن لإنسان عاقل أن يستغنى عن جزء من فطرته وكيانه، فهو الوسيلة الوحيدة التى نأمن مخاطرها، ونضمن نتائجها، لتحقيق الحياة الإنسانية، فالدين يقيم نظاماً يدعو إلى الفضيلة واعتناقها، كما يقيم دستوراً حكيماً يحفظ للإنسان إنسانيته، كما يحفظ له نفسه وماله.

(١) محمود شلتوت: من توجيهات الإسلام، ص ١٨.

(٢) د. محمد عبد الرحمن بىصار: العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، ط: الرابعة، الأنجلو المصرية، بالقاهرة، ص ٩٢.

وكما أن حاجة الإنسانية إلى الدين لحفظ النفس، والمال، والعرض، كذلك فإن الإنسانية في حاجة إلى الدين لتربية الإنسان الذى كرمه الله تعالى فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]

وعلى ذلك فإن احتياج الإنسانية عقيدة وسلوكًا نزعة فطرية، وأصلية ركبت فيه، وفطر عليها. ومن هذا المنطلق يصف القرآن الكريم الدين بأنه الحياة، وبأنه النور الذى يضيء للسالك الطريق، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالعقيدة تقوم من المجتمع مقام الروح من الجسد، ولسعادة المجتمع لا بد له من العقيدة الصحيحة، التى تنير الطريق، وتحدد أسلوب معاملة الفرد للجماعة، والجماعة للفرد.

ولقد كان لهذه العقائد والأصول والمبادئ الإنسانية، التى قام الإسلام عليها، ولما قام عليها هذا الدين من المساواة والعدالة والإحسان، كان لذلك أثر بالغ في سرعة انتشاره، وحسن تقبل الناس له في أقطار العالم المختلفة، كما كان ذلك من العوامل الحاسمة، والأساليب القوية، فيما أدركه الإسلام من عز، ومجد وسلطان، سعد به العالم الذى عاش تحت لوائه^(١).

فمن طبيعة المنهج الذى يرسمه هذا الدين، ومن حاجة البشرية لهذا المنهج نستمد يقيننا الذى لا يتزعزع في أن المستقبل لهذا الدين المتعطشة إليه البشرية جمعاء^(٢).

(١) د. محمد يوسف موسى: الإسلام والحياة، ص ٢٥.

(٢) سيد قطب: المستقبل لهذا الدين، ط: السادسة، الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية، مطبعة الفيصل، سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ص ١١٤.

فالعقيدة هي أساس قيام المجتمع، وأساس صلاحه أو فساد، بل هي أساس بقائه واستمراره، فهذا الدين في حقيقته النقية المصفاة، له أثره المبارك في تهذيب النفس، وإسعاد الإنسان، وتوجيه الحياة وجهة الحق والخير.

وإن الباحث: إذا تأمل أحوال الإنسانية في هذا العصر، فسوف يجد أنها في أمس الحاجة إلى الإسلام.

فالحضارة الغربية وصلت إلى أعلى مستوى من الرقى العمرانى، والتقدم العلمى الهائل، ولكن قصة البشرية - برغم التقدم الحضارى - فيها مساوئ كثيرة، زلت فيها أقدام البشر، وضاعت عقولهم، فقد أطلقت الحضارة الغربية حرية الإنسان، وحررت غرائزه المكبوتة، وتحولت الحريات إلى انحراف في الغريزة؛ وإلى شذوذ في الطبيعة، وإلى عدوان على حريات الآخرين، ونتيجة لهذه الحرية لم يعد هناك ضابط أو متصرف.

ومن تعاسة الحضارة المادية، أنها عكست كرائم النعم، والمملكات التى أنعم الله بها على الإنسان في وديان الهلاك والدمار وسقطت بالإنسانية دون عالم الحيوان، فراجت خسائس العادات، وذمائم الصفات من الاختلاط الفاضح، والشذوذ في السلوك، وظواهر الخنفسة والهيبز، والارتخااص، والابتذال، والخلاعة^(١).

لقد تقدمت العلوم بلا ريب، ولكن هذه الحضارة التى علمت الناس كيف يسبحون في الماء بالغواصات الجبارة، وكيف يطيطرون في الفضاء، وفي الهواء، وفوق السحاب، عجزت حتى اليوم عن تعليم ناسها وشعوبها كيف يسيترون على الأرض في طريق الخير بغير عوج والتواء.

إن الغرب اليوم في حيرة بالغة، وقلق واضطراب شاملين، وكل ذلك يأخذ عليهم عقولهم وقلوبهم، وأصبح الضمير هناك لا يطمئن إلى عقيدة أو مبدأ أو نظام فلم يعد يجد اليقين الذى يفتى إلى ظله، في جو من الهدوء والراحة والاستقرار^(٢).

(١) د. أحمد عبد الرحيم السايح: أضواء على الحضارة الإسلامية، ط: مكتبة دار اللواء بالرياض، سنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ص ١٩١-١٩٢.

(٢) د. محمد يوسف موسى: الإسلام والحياة، ص ٢٦.

والبشرية اليوم في مفترق الطريق، فهناك اضطرابات في الأفكار وحيرة في الاتجاهات، وزعزعة في النظم، وخواء من العقيدة، أصبح يجرفها دولة بعد دولة، وشعباً بعد شعب، إلى هاوية المادية. وعلى كل فقد وقع المحذور، وانصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها، وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة، ووجهة نظر، ونفسية، وعقلية، وأخلاق، واجتماع، وعلم، وأدب، وسياسة، وحكم، وكان ذلك تدريجياً، وكان أولاً ببطء وعلى مهل، ولكن بقوة وعزيمة فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون في الكون نظراً مؤسساً على أنه لا خالق ولا مدبر، ولا أمر، وليس هناك قوة وراء الطبيعة، والمادة تنصرف في هذا العالم، وتحكم عليه، وتدبر شئونه، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعي، ويعلمون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكى بحث، وسموا هذا نظرياً علمياً مجرداً^(١).

لقد أفلست الحضارة الغربية، برغم التقدم العلمى الهائل الذى وصلت إليه، وبدأ الإنسان الأوربى يهرب من حضارته؛ لأنه لم يحس في ظلها بالسعادة، ولم يحس في مجتمعه بالأمن والأمان والاطمئنان، فقد انتشرت عصابات القتل، والخطف، والتخريب، والإرهاب، وتفاقم خطر الجريمة، وازداد عدد المجرمين، وامتألت البلاد بجماعات العريضة والفجور وأقيمت نوادى العراة وأبيح في غير استحياء الشذوذ الجنسى، إلى غير ذلك.

وهكذا تعجز النظم البشرية، والقوانين الوضعية، عن تقديم أى عون للإنسان، أو الأخذ به إلى الطريق السليم، مما يؤكد ضرورة الإسلام للمجتمعات الإنسانية؛ لأن الإسلام قد انطوى على طاقة روحية جعلت منه - عند التطبيق - قوة فعالة مؤثرة، بل إن فاعلية الإسلام شملت حياة الأفراد، وحياة الجماعات لجميع الجوانب.

(١) أبو الحسن الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، ص ١٧٨، ط : دار الكتاب العربى، بيروت، سنة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤.

المبحث الثالث

مزايا العقيدة الإسلامية وخصائصها

١ - عقيدة واضحة:

للعقيدة الإسلامية مزايا لا تتوافر لغيرها من العقائد:

فهى عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض، تتلخص فى أن وراء هذا العالم البديع المنسق المحكم رباً واحداً خلقه ونظمه، وقدر كل شىء فيه تقديرًا، وهذا الإله أو الرب ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَيْنُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وهذه عقيدة واضحة مقبولة، فالعقل دائماً يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة، ويريد أن يرجع الأشياء دوماً إلى سبب واحد.

فليس فى عقيدة التوحيد ما فى العقائد الأخرى مثل الوثنية ونحوها من الغموض الذى يعتمد دائماً على الكلمة الماثورة عند غير المسلمين (واعتقد وأنت أعمى).

٢ - عقيدة الفطرة:

وهى عقيدة ليست غريبة عن الفطرة ولا مناقضة لها، بل هى منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم، وهذا هو صريح القرآن: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. وصريح الحديث النبوى: «كل مولود يولد على الفطرة (أى على الإسلام) وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه»^(١)، فدل على أن الإسلام هو فطرة الله، فلا يحتاج إلى تأثير من الأبوين.

(١) متفق عليه.

٣- عقيدة ثابتة:

وهي عقيدة ثابتة محددة لا تقبل الزيادة والنقصان، والتحريف والتبديل.

وبعد بعث الناس من قبورهم يكون الحساب الدقيق، والميزان العادل:

﴿ أَلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧].

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ أْتَيْنَا بِهَا ۖ وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وهناك يقسم العباد إلى شقى وسعيد، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [خليلين: ١٦] فيها ما دامت السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ ﴿ [هود: ١٠٦-١٠٨].

والجنة دار هيأها الله لمثوبة الصالحين من عباده، وأعد فيها من النعيم الروحي والمادى ما عبر الله عنه في الحديث القدسى: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» اقرأوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

إن الحياة في هذه الدار هي الحياة الحققة، وإن نعيمها هو النعيم الذى يقصر الخيال البشرى عن وصفه، إنه ليس نعيماً روحياً خالصاً، ولا نعيماً مادياً صرفاً، وإنما هو مزيج من الأمرين، ذلك أن الإنسان نفسه ليس روحاً مجردة، ولا مادةً بحتة، إنما هو مركب منهما، والإنسان في الآخرة امتداد للإنسان الدنيا، وإن اختلف الكيف والتفصيل، فلا عجب أن يكون في الجنة فاكهة ولحم وطيور وحوار عین ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

والنار دار أعدها الله لعقوبة الفجار من الخلق، وهى تجمع العقوبتين المادية والروحية معا.. فهناك العذاب الحسى ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ ﴾ [النساء: ٥٦]. هناك العذاب النفسى الذى يمثل فى الهوان والخزى كقوله تعالى: ﴿ أَحْسَعُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. فليس لحاكم من الحكام، أو مجمع من المجمع العلمیة، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية، أن يضيف إليها

أو يحوّر فيها، وكل تحوير أو إضافة مردودة على صاحبها، والنبى ﷺ يقول: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»^(١) أى مردود عليه.

والقرآن يقول مستنكراً: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. وعلى هذا فكل البدع والأساطير والخرافات التى دست فى بعض كتب المسلمين أو أشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه.

٤- عقيدة مبرهنة:

وهى عقيدة «مبرهنة» لا تكفى من تقرير قضايها بالإلزام المجرد والتكليف الصارم، ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأخرى «اعتقد وأنت أعمى» أو «آمن ثم اعلم» أو «أغمض عينيك ثم اتبعنى» أو «الجهالة أم التقوى» بل يقول كتابها بصراحة: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١، والنمل: ٦٤]، ولا يقول أحد علمائها ما قاله القديس الفيلسوف المسيحى (أوغسطين): «أو من بهذا لأنه محال»! بل يقول علماءؤها: إن إيمان المقلد لا يقبل.

وكذلك لا تكتفى بمخاطبة القلب والوجدان والاعتماد عليها أساساً للاعتقاد، بل تتبع قضايها بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع، والتعليل الواضح، الذى يملك أزمة العقول، ويأخذ الطريق إلى القلوب، ويقول علماءؤها: إن العقل أساس النقل، والنقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح.

فنرى القرآن فى قضية الألوهية يقيم الأدلة من الكون، ومن النفس، ومن التاريخ على وجود الله وعلى وحدانيته وكمالته.

وفى قضية البعث يدلل على إمكانه بخلق الإنسان أول مرة، وخلق السماوات والأرض، وإحياء الأرض بعد موتها، ويدلل على حكمته بالعدالة الإلهية فى إثابة المحسن، وعقوبة المسىء ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

(١) متفق عليه .

وهى عقيدة وسط لا نجد فيها إفراطاً ولا تفريطاً:

هى وسط بين الذين ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه حواسهم، وبين الذين يثبتون أن للعالم أكثر من إله، بل يحلون روح الإله فى الملوك والحكام بل فى بعض الحيوانات والنباتات مثل الأبقار والأشجار، فقد رفضت الإنكار الملحد، كما رفضت التعديد الجاهل، والإشراك الغافل، وثبتت للعالم إلهاً واحداً، لا إله إلا هو ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٤٧﴾ قُلْ مَنْ يَدِينُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٩٨].

وهى عقيدة وسط فى صفات الإله:

فليس فيها الغلو فى التجريد الذى يجعل صفات الإله مجرد أسلوب لا تعطى معنى، ولا توحى بالخوف أو رجاء، كما فعلت الفلسفة اليونانية - فكل ما وصفت به الإله أنه ليس بكذا وليس بكذا .. من غير ما تقول ما صفات هذا الإله الإيجابية؟ وما أثرها فى هذا العالم؟

ويقال هذا؛ لأنها خلت من التشبيه والتجسيم الذى وقعت فيه عقائد أخرى كاليهودية .. جعلت الخالق كأحد المخلوقين من الناس، ووصفته بالنوم والتعب والراحة، والتحيز والمحابة والقسوة...و.. وجعلته يلتقى ببعض الأنبياء فيصارعه فلم يتمكن الرب من الإفلات منه حتى أنعم عليه بقلب جديد !!

ولكن عقيدة الإسلام تقرر تنزيه الله - إجمالاً - عن مشابهة مخلوقاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]. ومع هذا تصفه تفصيلاً - بصفات إيجابية فعالة ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ

عَلِمَهُ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [١٢] إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ ﴿ [١٦] وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴾ [١٢-١٦].
الْعَرْشِ الْحَنِيدُ ﴿ [١٦] فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٢-١٦].

وهى وسط بين التسليم الأبله الذى يأخذ عقائد الآباء بالوراثة، كما يرث عنهم العقارات والأملك ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وبين الذين يريدون أن يعرفوا كنه كل شىء حتى الألوهية، وهم بعد لم يعرفوا كنه أنفسهم التى بين جنوبهم، ولا ماهية حياتهم وموتهم، ولا كنه شىء من القوى الكونية المحيطة بهم، فكيف يطمع العقل بعد ذلك فى معرفة كنه الألوهية؟ وهل يعرف النسبى كنه المطلق؟ ويعرف المحدود حقيقة غير المحدود؟!

وهى مع هذا تفتح الباب للنظر فى الكون والتفكير فيه، يقول الرسول: «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا»^(١)، ويقول القرآن: ﴿ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الروم: ٨]. ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ دُونِهَا أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْرٌ ﴾ [الذاريات: ٢١].

وهى وسط فى علاقتها بالعقائد الأخرى؛ فلا تقبل الذوبان فى غيرها، بل تدعو فى قوة إلى الثبات عليها والاستمسك بها: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩]. ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣]. ولكنها لا تتعصب ضد غيرها من العقائد السماوية ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ﴾ [الشورى: ١٥]. بل يتسع صدرها لما يخالفها: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦]. ﴿ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١].

(١) الحديث روى بالفاظ متعددة، من طرق مختلفة، بأسانيد كلها ضعيفة، ولكن تعددها واجتماعها يكسبها قوة، والمعنى صحيح كما قال البخارى فى المقاصد الحسنة.

تهيب بأصحابها أن يدعوا إليها: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]. ولكنها لا ترضى بإكراه أحد على اعتناقها: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

لا تقبل التهاون في معاداة من يجاربونها ويضعون العراقيل في سبيلها وإن كانوا من ذوى القرابة القريبة: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢]. ولكنها لا تقبض يد البر والمعونة عمن يخالفها ولا يتعدى على أهله: ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

وهى وسط بين الذين يتساهلون في إثبات العقائد فيقبلون الظنون والشكوك والأوهام، وهذا معين لا ينضب لقبول الخرافات والأساطير، وبين الذين لا يقبلون في العقيدة أى خطرة تمر بالذهن ثم تخفى، أو هاجس في النفس ثم يزول، لقد رفضت عقيدة الإسلام الظن في أصول العقيدة - فضلا عن الشك أو الوهم - قال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [يونس: ٣٦]. ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ [النجم: ٢٣]. ﴿ وَمَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم: ٢٨].

ومع هذا تساحت في الخواطر التى لا يسلم منها العقل البشرى، بل اعتبرتها أحيانا دليل يقظة العقل، ومظنة للطمأنينة وعلو اليقين. قال بعض الصحابة: يا رسول الله، إنا نجد فى أنفسنا ما لو أن نصير حمما - فحما محترقا - أهون من أن نتكلم به - يعنون خطرات ترد عليهم فى قضايا الألوهية - فقال النبى ﷺ فى صراحة وقوة: أو قد وجدتموه؟ ذاك صريح الإيمان^(١).

(١) رواه البخارى وغيره .

ويرى الحاكم أن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم أجمعين التقيا، فقال ابن عباس رضى الله عنهما: أى آية فى كتاب الله أرجى؟ فقال ابن عمر رضى الله عنهما: قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لَّيُطَمِّنَنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. فرضى منه بقوله: بلى، فهذا ما يعترض فى الصدر مما يوسوس به الشيطان.

إنها وسوسة الشيطان سرعان ما يطردها إلهام الملك فى قلب المؤمن، إنها طيف يلوح ثم يختفى، وهاجس يهجس ثم يزول بإسلام الوجه لله، والاعتصام بهداه، وتلاوة آياته ﴿وَمَن يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] ﴿وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

وهى وسط فى أمر النبوة، فلم ترفع الأنبياء إلى مقام الألوهية، فيتجه الناس إليهم بالعبادة أو الاستعانة مع الله، كما اعتقد أهل الملل فى أنبيائهم، ولم تنزل بهم إلى مستوى السفلة من الناس، فتنسب إليهم ارتكاب الموبقات، وفعل المنكرات من شرب المسكرات: واتباع للشهوات بل قتل النفوس فى سبيلها - كما رأينا فى وصف أسفار العهد للأنبياء.

وإنما الأنبياء فى عقيدة الإسلام بشر أصفياء، علم الله طيب معادهم، وحسن استعدادهم، فأنزل وحيه عليهم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وجعلهم أسوة لأتباعهم وعصمهم من قبائح الذنوب ودنىء الأعمال، حتى لا يتوجه إليهم وعيد الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. وحتى يكونوا أهلا لعهد الله تعالى ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

٦- وحدة العقيدة فى الإسلام:

ومن الأصول الأساسية التى جاء بها الإسلام، وتعد من أهم الركائز لوحدة المسلمين، مهما اختلفت بهم الأقطار، ومهما تباينت جنسياتهم، وتمايز جنس من

الأجناس، أو لون من الألوان، أو مصر من الأمصار.. كلا بل هي واحدة دائماً عند كل المسلمين، تقوم على الإيمان بالله، وبرسوله ﷺ وبكل ما في القرآن وأن الإسلام هو الإسلام، والقرآن هو القرآن. وأساس العقيدة: هو الإيمان بوجود الله تعالى، بل إن ذلك هو أساس الدين كله؛ لأن الإيمان يدفع الإنسان إلى التصديق بكل ما أخبر به، وتنفيذ كل ما أرشد إليه من أمر ونهى ^(١).

وقد عبر القرآن الكريم عن العقيدة: بالإيمان، والعقيدة في الوضع الإسلامي هي الأصل ^(٢) وعناصر هذه العقيدة: مبثوثة في آيات كثيرة من القرآن الكريم، ومن أجمعها على سبيل الاستشهاد: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قال ابن كثير: اشتملت هذه الآية على جمل عظيمة وقواعد عميقة، وعقيدة مستقيمة ^(٣).

والآية - كما ترى - : مشتملة على خمس عشرة خصلة، وترجع إلى ثلاثة أقسام: فالخمس الأولى منها: تتعلق بالكمالات الإنسانية، التي هي من قبيل صحة الاعتقاد، وآخرها، قوله: (والنبين) وافتتحها بالإيمان بالله واليوم الآخر؛ لأنها إشارة إلى المبدأ والمعاد.... والستة التي بعدها: تتعلق بالكمالات النفسية، التي هي من قبيل حسن معاشره العباد، وأولها (وآتى المال)، وآخرها: (وفي الرقاب) والأربعة الأخيرة تتعلق بالكمالات الإنسانية، التي هي من قبيل تهذيب النفس، وأولها: (وأقام الصلاة)، وآخرها (وحين البأس). ومن عمل بهذه الآية: فقد استكمل الإيمان، ونال أقصى مراتب الإيقان ^(٤).

(١) أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ١٦ .

(٢) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشرعية، ص ٦، بتصرف.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٢٠٧.

(٤) الألوسي: روح المعاني، ج ١، ص ٣٥٩.

ومن أجمع ما ورد من حديث رسول الله ﷺ في عقيدة المسلمين، ما جاء عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج »^(١).

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً »^(٢). إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الواردة في عقيدة المسلمين، وهى فى حقيقتها مبنية لما جاء به القرآن الكريم، موضحة له.

وعقيدة المسلمين واحدة لدى كل المسلمين، فى شرق الأرض وغربها، وشمالها، وجنوبها، تجمع عليها قلوبهم، وتحفظها عقولهم، وتستيقننها أنفسهم.

ووحدة العقيدة جدت بين المسلمين ما مضى من قرابة الدم القائمة بينهم، وإذا كانت أبوة آدم ﷺ أبوة مادية، تجمع بين الأمة الإسلامية، وتوحد بينها فى الأصل، فإن العقيدة الإسلامية هى أبوة روحية ترجع إليها فروع المؤمنين، والحق أن المؤمن حينما يستشعر جلال هذا الأصل الروحي، الذى يجمعه معهم إلى أبوة واحدة، فإنه حينئذ يشعر أنه إنما يحيا بإخوانه، ويحيا لهم كأنه غصن من أغصان شجرة عظيمة، يحيا بحياتها، ويموت بموتها.

وإن رابطة العقيدة فى الإسلام أعلى وأقوى من رابطة الدم والنسب، والمساكنة فى الوطن، والمشاركة فى القومية.

وهذا الأساس: هو المنطلق الوحيد للخروج من قوقعة الأنانيات الفردية، والقبلية، والقومية، إلى صعيد اللقاء الإنسانى، على أساس المبادئ المتينة الراسخة، مبادئ الحق والعدل والخير، وفى هذا الإطار التربوى النفسى ذاته، عالج الإسلام النفس الإنسانية إعدادًا لها لتحقيق التعارف والتعاون.

(١) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى، كتاب الإيمان، باب: دعاؤكم إيمانكم، ج ١، ص ٤٩.
(٢) رواه مسلم فى صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضى بالله ربا، وبالإسلام ديناً، فهو مؤمن، ج ١، ص ٦٢.

وانطلاقاً من مفاهيم العقيدة التي جاء بها الإسلام أعد الإسلام النفوس للتعارف والتعاون الإنساني، ذلك أنه جعل العصبية بأنواعها فسوقاً، وخروجاً عن العقيدة، وانحرافاً عن حياتها.

والعقيدة تعنى الارتباط بين القلب البشرى وفكرة أو رأى أو منهج معين، وإن هذا الارتباط يتميز بالوثاقة والقوة والإحكام، كما يتسم بالثبات، والاستمرار والاستقرار^(١).

والعقيدة هي الأمر الذي تثق به النفس، ويطمئن إليه القلب، ويكون يقينا عند صاحبه ولا ييازجه شك، ولا يخالطه ريب، فالعقيدة مجموعة من قضايا الحق المسلم بها بالسمع والعقل والفطرة، يعقد عليها الإنسان قلبه، ويثني عليها صدره، جازماً بصحتها، قاطعاً بوجودها وثبوتها^(٢).

ويذكر العقائد أننا نعنى بالعقيدة الدينية طريقة حياة، لا طريقة فكر، ولا طريقة دراسة، إنما نعنى بها حاجة النفس، كما يحس بها من أحاط بتلك الدراسات، ومن فرغ من العلم والمراجعة، ليرتقب مكان العقيدة، من قرارة ضميره، إنما نعنى بها ما يملأ النفس، لا ما يملأ الرءوس، أو يملأ الصفحات^(٣).

إن العقيدة التي يصح أن توصف بالعقيدة الدينية هي التي لا يستغنى عنها من وجدها، ولا يطيق الفراغ منها من فقدها، ولا يرفضها من اعتصم منها بمعصم، واستقر فيها على قرار^(٤).

وإذا كان القرآن الكريم لم يذكر كلمة «عقيدة» وذكر مادتها اللغوية، فإن القرآن الكريم ذكر حقائق أساسية كبرى هي في مجموعها موضوع ما يسمى العقيدة أو العقائد.

وفي مجال العقيدة أو العقائد جاء القرآن الكريم بكلمة "الإيمان"، وللقرآن الكريم طريقته الخاصة في عرض الحقائق وهي طريقة تصلح في آن واحد للخاصة من الناس والعامة منهم^(٥).

(١) السيد رزق الطويل: العقيدة في الإسلام منهج حياة، ص ١٥-١٦.

(٢) آمنة محمد نصير: مباحث في علوم العقيدة، مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٤ هـ، ص ١٠.

(٣) عباس محمود العقائد: العقائد والمذاهب، مجلد رقم ١١، ط ٢، دار الكتاب اللبناني، ص ٤٠٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٣١.

(٥) محمد المبارك: العقيدة في القرآن الكريم، ط ١٠ دار الفكر، بيروت، ص ٩.

ثم إنه إذا كانت كلمة العقيدة تعنى الربط والتوثيق، فإن كلمة الإيمان « تعنى الربط والتوثيق مضافاً إليها ما يطمئن إليه القلب، ويقتنع به اقتناعاً ذاتياً ونفسياً».

وهذه الحقائق الأساسية عرضها القرآن الكريم على الناس، وأيدها بالأدلة والشواهد ودعا إلى تصديقها والإيمان بها، وكرر ذكرها بأساليب شتى، وطرق متعددة، وهى التى تؤلف جو القرآن العام، والأساس الذى تتفرع منه قواعده الخلقية، وأحكامه التشريعية، لا تنفصل عنه أبداً، وهى القاعدة الفكرية التى أراد الله أن يقيم عليها بناء الإنسان وتكوينه^(١). ولقد دعا القرآن بإلحاح إلى الإيمان بهذه الحقائق الكبرى، دعا إلى الإيمان بالله خالق الكون، وبالحياة الآخرة، التى تتجلى فيها مسئولية الإنسان، ويتحدد مصيره الأبدى، وبالنبوة والوحى طريقاً إلى معرفة الحقائق التى يريد الله أن يلقبها إلى الإنسان، سواء أكان موضوعها عالم الغيب أم حقائق ما وراء المادة، أم كان توجيه الإنسان وتنظيم شئونه فى هذه الحياة^(٢).

ومما لا يخفى على الإنسان: أن هناك نوعاً آخر من الحقائق اشتمل عليها القرآن الكريم، ووردت فيه على أنها طريق إلى الحقائق الأساسية - من الإيمان بالله والحياة الآخرة وبالنبوة والوحى - ووسيلة للوصول إليها، ولكنها تتكرر فى سور القرآن فى صور وأشكال شتى مرافقة للحقائق الأساسية؛ لتأييدها ودعمها، ويشتمل هذا النوع على مشاهد الكون فى القرآن الكريم بأفائه الواسعة، وأنواع مخلوقاته المختلفة، وحوادثه المتبدلة، وسننه المطهرة، ويشتمل بوجه خاص على حياة الإنسان فى خلقه وتكوينه وميوله وغرائزه فى أجياله المتعاقبة، ومن عرف الحقائق الأساسية استطاع أن يخرج بفكرة شاملة عن:

- نظرة الإسلام إلى الوجود: وجود الخالق، وجود العالم المخلوق: الكون والإنسان.

- نظرة الإسلام إلى الصلة بين الله والكون، وبين الله والإنسان، وبين الكون والإنسان.

(١) المرجع السابق: بتصرف، ص ٩.

(٢) المرجع السابق: بتصرف: ص ١٠.

ويتكون من مجموع ذلك عقيدة كاملة، ونظرة شاملة، وهذه العقيدة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير في العادة مصاعب عقلية خاصة.

٧- شمول العقيدة الإسلامية:

وذلك أن العقيدة الإسلامية، عقيدة شاملة، ومن أى جانب ينظر الإنسان إليها، لقد جاء الإسلام من جوف الصحراء العربية، بأسمى عقيدة في الإله الواحد الأحد، صححت فكرة الفلسفة النظرية، كما صححت فكرة العقائد الدينية، فكان تصحيحه لها أعظم المعجزات التي أثبتت في حكم العقل المنصف، والبديهة الصادقة، أنه وحي من عند الله^(١).

ومن ثم - كما يقول العقاد: كانت هذه العقيدة الإلهية في الإسلام مصححة لكل عقيدة سبقتها في مذاهب الديانات، أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية.

وهي عقيدة كاملة، صححت عقيدة المعلم الأول بين فلاسفة الغرب الأقدمين؛ لأنه كان على خطأ في فهم التجريد والتنزيه، ساقه إلى الخطأ إلى القول بكمال مطلق، كالعدم المطلق في التجرد من العمل، والتجرد من الإرادة، والتجرد من الروح^(٢).

ودين يصحح العقائد الإلهية فيما سبقه من ديانات الأمم وحضارتها ومذاهب فلاسفتها^(٣).

وما كان الشمول في العقيدة الإسلامية ليذهب فيها مذهباً أبعد وأوسع من خطاب الإنسان روحاً وجسداً وعقلاً وضميراً، بغير بخس ولا أفراد في ملكة من هذه الملكات^(٤).

والعقيدة الإسلامية توصف بالشمول؛ لأنها تفسر كل القضايا الكبرى في الوجود، القضايا التي شغلت الفكر الإنساني، ولا تزال تشغله وتلح عليه بالسؤال،

(١) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ج ٥، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، ص ٤٠.

(٢) د. أحمد عبد الرحيم السايح: هذا هو الإسلام، الدوحة، دار الثقافة، ص ١٦٣.

(٣) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ج ٥، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، ص ٦٠ - ٦١.

(٤) المصدر السابق: الجزء نفسه، ص ٣٢.

وتتطلب الجواب الحاسم، الذى يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة، وينشله من متاهات النحل المتضاربة، قديماً وحديثاً، فإذا كانت بعض العقائد تعنى بقضية الإنسان دون قضية الألوهية والتوحيد، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الأخروى فإن عقيدة الإسلام قد عنت بهذه القضايا كلها وقالت كلمتها فيها، بشمول واضح ووضوح شامل^(١).

ولهذا جاءت تشريعات الإسلام لجميع الناس، ولكافة مراحل تطور الإنسان من الميلاد إلى الوفاة، وبذلك تشمل كيان الفرد كله، والمجتمع بأسره. والناظر فى تشريعات الدعوة الإسلامية، يرى أنها كانت مع الإنسان، جنينا فى بطن أمه، وبعد مولده، وفى شبابه، ورجولته، تساييره هكذا فى أطواره المختلفة، حتى يأتية أجله^(٢).

وتتمثل خاصية الشمول التى يتسم بها الإسلام فى رد هذا الوجود كله بنشأته ابتداءً، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاق فيه، وكل تحور، وكل تطور، والهيمنة عليه وتدييره وتصريفه، إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية، الأزلية، الأبدية المطلقة^(٣).

وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول؛ لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة، ولا بد أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار^(٤).

وشمول العقيدة الإسلامية، هو الذى حقق للإسلام ما لم يتحقق لعقيدة أخرى من تحويل الأمم العريضة التى تدين بالكتب المقدسة إلى الإيمان به عن طوعية واختيار، كما آمنت به الأمم المسيحية والمجوسية، والبرهمية فى مصر وسوريا، وفارس، والهند، والصين.

إن شمول العقيدة الإسلامية، هو العامل القوى الذى يجمع إليها النفوس ويحفظ لها قوى الإيمان^(٥). ومن آثار شمول العقيدة فى الإسلام نرصد انعكاس ذلك فى شمول العبادة فى الإسلام.

(١) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٦.

(٢) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٣٠٠.

(٣) د. سيد قطب: خصائص التصور الإسلامى، ط: دار الشروق، سنة ١٤٠٠ - ١٩٨٠ م، ص ٩٢.

(٤) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٨.

(٥) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ٢٦.

وتتمثل ظاهرة الشمول الإسلامى فى عباداته كما تمثلت فى عقيدته، فالعبادة فى الإسلام تستوعب الكيان البشرى كله، فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب، أو ببدنه فقط، أو بقلبه لا غير، أو بعقله مجرداً، أو بحواسه وحدها، بل يعبد الله بهذه كلها؛ بلسانه ذاكرًا، داعيًا، تاليًا، ببدنه مصليًا، صائمًا، مجاهدًا، وبقلبه خائفًا، راجيًا، محبًا، متوكلًا، وبعقله متفكرًا، متأملًا، وبحواسه كلها مستعملًا لها فى طاعته سبحانه وتعالى^(١)، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْ رِزْقِي وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ ﴿٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وأن هذا النص القرآنى الكريم - كما يقول الشهيد سيد قطب: ليحتوى حقيقة ضخمة هائلة، ومن جوانب هذه الحقيقة: أن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر، ونحن نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان، نعرفها من القرآن الكريم، من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. فالخلافة فى الأرض عمل هذا الكائن الإنسانى، وهى تقتضى ألوانا من النشاط الحيوى، من أجل عمارة الأرض، والتعرف على قواها وطاقاتها وذخائرها ومكوناتها، وتحقيق الإرادة الإلهية فى استخدامها وتنميتها، وترقية الحياة فيها. كما تقتضى الخلافة: القيام على شريعة الله فى الأرض؛ لتحقيق المنهج الإلهى الذى يتناسق مع السنن الكونية، ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة - التى هى غاية الوجود الإنسانى، أو التى هى وظيفة الإنسان الأولى - أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلية فى مدلول العبادة قطعاً^(٢).

وإذا كانت العبادة غاية الوجود الإنسانى كما هى غاية كل وجود، فإن مفهومها لا يقتصر على المعنى الخاص الذى يرد إلى الذهن، والذى يضيق نطاقها حتى يجعلها محصورة بأنواع الشعائر الخاصة، التى يؤديها المؤمن.

(١) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٢) سيد قطب: فى ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٣٨٦ - ٣٣٨٧ بتصرف.

ولفظ العبادة بمعناه العام: يعنى السير فى الحياة ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالى وفق شريعته الغراء^(١).

والعبودية - كما بينها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - تشمل كل ما يجب الله ويرضى، من الأقوال والأفعال^(٢).

ولفظ العبادة: يطلق على كل عمل تحقق فيه الشروط ١ تية:

١- أن يكون العمل نافعا مفيداً، وصالحاً فى الحياة.

٢- أن يراد بهذا العمل وجه الله - سبحانه وتعالى - لارتباط الأعمال بالنيات «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»^(٣).

٣- أن يؤدى العمل بلا مخالفة شرعية « فكل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد »^(٤).

فإذا تحققت هذه الشروط فى أى عمل، نستطيع وبكل اطمئنان: أن نلقبه بالعبادة، وأنه مما يجب الله ويرضى، وأنه فى سبيل الله^(٥).

والغرض من العبادات: تنبيه المتدين إلى حقيقتين، لا ينساهما الإنسان فى حياته العامة أو الخاصة:

الحقيقة ١ ولى: التى يراد من العبادة المثل أن تنبه إليها ضمير الإنسان على الدوام هى: وجوده الروحى، الذى ينبغى أن تشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية، وغير شهواته الحيوانية.

الحقيقة الثانية: التى يراد من العبادة المثل أن تنبه إليها ضميره هى: الوجود الخالد الباقي، إلى جانب وجوده الزائل المحدود فى حياته الفردية.

وعباداة المسلم فى جميع فرائضها تتكفل له بالتنبيه الدائم إلى هاتين الحقيقتين^(٦).

(١) د. عبد الكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلامية، ص ١٤٨.

(٢) ابن تيمية: رسالة العبودية، ص ٤.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه كتاب الوحي.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى كتاب البيوع باب النجش.

(٥) د. محمد رأفت سعيد: التوازن فى التصور الإسلامى، ص ٢٧-٢٨.

(٦) العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص ١١١-١١٢ باختصار.

لقد عد الإسلام قضية التوحيد قضيته الأولى، وقضيته الكبرى. توحيد الألوهية، وأفردها بخصائصها، والاعتراف بها لله وحده، وشمول العبودية لكل شيء، ولكل حي، وتجريدها من خصائص الألوهية جميعاً^(١).

قال كعب بن عجرة رضي الله عنه: مر على النبي ﷺ رجل ذكر أصحابه من جلده ونشاطه ما أعجبهم فقالوا: يا رسول الله: لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال: «إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أولادٍ صغار فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو في سبيل الشيطان»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموالٍ: يحجون، ويعتصرون، ويجاهدون، ويتصدقون. فقال: «ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم؟ ولا يكون أحد أفضل منكم إلا مَنْ صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «تسبحون، وتحمدون، وتكبرون، خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» قال أبو الرواس عن أبي هريرة، لما سئل عن كيفية ذكرهن، قال: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، حتى يكون منهن كلهن ثلاثاً وثلاثين^(٣).

ومن شمول العقيدة في الإسلام نرصد شمول التشريع الإسلامى كذلك، والتشريع الإسلامى تشريع كامل بكل معنى الكلمة، فما من حدث ولا عمل يصدر عن الإنسان، ولا علاقة تقوم بينه وبين غيره إلا وللشريعة حكم فيها^(٤).

إن الإسلام لا يشرع للفرد دون الأسرة، ولا للأسرة دون المجتمع، ولا للمجتمع منعزلاً عن غيره من المجتمعات. إن تشريع الإسلام يشمل التشريع للفرد في عبادته وصلته بربه، وهذا ما يفصله قسم العبادات في الفقه الإسلامى.

(١) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى، ط: دار الشروق، ص ١١٦.

(٢) أورده المنذرى في الترغيب والترهيب، ج ٢، ص ٥٢٤.

(٣) رواه البخارى (٢ / ٢٧٠، ٢٧٢) ومسلم (٥٩٥).

(٤) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، ص ٥١.

ويشمل التشريع الفرد في سلوكه الخاص والعام، وهذا يشمل ما يسمى
الحلال والحرام، أو الحظر والإباحة^(١).

وارتبط التشريع الإسلامى بالإيمان بالله، والاعتقاد بوحدانيته، ومنهجه الذى
ينظم شئون الحياة فى جميع جوانبها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، إذ إن
رسالة الإسلام عامة شاملة، تنظم العلاقة بين الخالق والمخلوق، كما تنظم حياة
الإنسان فى الدنيا تنظيماً يربطها بالعقيدة، ويخضعها لأحكام التشريع الإسلامى^(٢).

والإسلام حين يبنى تشريعه ومنهجه للحياة على هذا الأساس، إنما يهدف إلى
غاية يعمل على تحقيقها فى كل جوانب الحياة، هذه الغاية هى : صلاح المجتمع
الإسلامى، وتحقيق الخير والفلاح له فى كل شئون حياته، ودفع الضرر والفساد
الذى يصيب الفرد أو المجتمع، إذا أعرض عن هدى الله وخالف أمره^(٣).

كما أن الشريعة الإسلامية لم تأت لوقت دون وقت، أو لعصر دون عصر، أو
لزمان دون زمان، وإنما هى شريعة كل وقت، وكل عصر، وكل زمان، حتى يرث الله
الأرض ومن عليها.

ومن يراجع أحكام الشريعة، يجد أنها كاملة لا نقص فيها، ولا قصور، شاملة
لأمور الأفراد والجماعات والدول، فقد صيغت نصوص الشريعة، بحيث لا يؤثر
على نصوصها مرور الزمن، ولا يبلى جديتها، ولا يقتضى تغيير قواعدها العامة،
ونظرياتها الأساسية^(٤).

ولهذا وجدنا التشريع الإسلامى يشمل التشريع للمجتمع فى علاقاته المدنية
 والتجارية وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع، بعوض أو بغير عوض من البيوع،
والإيجارات، والقروض، والمداينات، والرهن، والكفالة، والضمان، وغيرها^(٥).

(١) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٤-١١٥.

(٢) د. عبد العظيم فودة: الحكم بما أنزل الله، ص ٢١، ط: دار الصحوة بالقاهرة سنة ١٤٠٧ هـ -
١٩٨٧ م.

(٣) المصدر السابق: ص ٢١.

(٤) د. محمد صالح عثمان: وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية، ص ١٦٨، ط: جامعة الإمام محمد بن
سعود الإسلامية، سنة ١٤٠١ هـ.

(٥) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٥.

والباحث في التشريع الإسلامى وما جاء به يكشف فى وضوح: أن التشريع الإسلامى شامل لجميع شعب الحياة من أعمال الأفراد، وعباداتهم، وسيرهم، وأخلاقهم، وعاداتهم، وآدابهم فى الأكل، والشرب، والجلوس، والقيام، واللباس، والكلام، والشئون الأسرية، والصلات الجماعية، والقضايا المالية، والاقتصادية، والإدارية، وحقوق الوطن، وواجباته، والعدالة، ومرافق الحكومة، وحالات السلم، والحرب، والعلاقات بالأمم الأجنبية، وما إليها^(١)، مما عنيت به كتب السير، أو الجهاد فى الفقه الإسلامى .. ومن هنا لا توجد ناحية من نواحي الحياة، إلا دخل فيها التشريع الإسلامى، أمراً أو ناهياً أو مخبراً^(٢).

ومن أمثلة الشمول فى التشريع الإسلامى ما يأتى:

- أحكام الأسرة من نكاح وطلاق، وإرث ونفقة، تسمى فى الاصطلاح: بأحكام الأسرة أو الأحوال الشخصية.
- أحكام تتعلق بعلاقات الأفراد، ومعاملاتهم، كالبيع، والإجارة، والرهن، والكفالة .
- أحكام تتعلق بالقضاء والدعوى، وأصول الحكم، والشهادة، واليمين، والبينات.
- أحكام تتعلق بمعاملات الأجانب غير المسلمين عند دخولهم إلى إقليم الدولة الإسلامية، والحقوق التى يتمتعون بها، والتكاليف التى يلتزمون بها.
- أحكام تتعلق بنظام الحكم وقواعده، وشكل الحكومة، وعلاقات الأفراد بها، وحقوقهم إزاءها .
- أحكام تتعلق بموارد الدولة الإسلامية، ومصارفها، وتنظيم العلاقات المالية بين الأفراد والدولة، وبين الأغنياء والفقراء .
- أحكام تتعلق بتحديد علاقة الفرد بالدولة، من جهة الأفعال المنهى عنها، والجرائم، وإنزال العقوبات بالمجرمين، وكيفية تنفيذها^(٣) .

(١) د. محمد صالح عثمان: وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية، ص ١٦٩ .

(٢) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٥ .

(٣) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، ص ٣٠ .

يبدو شمول التشريع الإسلامى فى أمر آخر، أو بعد آخر، وهو: النفاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة وما يتأثر بها، والنظر لها نظرة محيطية، مستوعبة مبنية على معرفة النفس الإنسانية، وحقيقة دوافعها، وتطلعاتها، وإشراقها، ومعرفة الحياة البشرية، وتنوع احتياجاتها، وتقلباتها، وربط التشريع بالقيم الدينية، والخلقية بحيث يكون التشريع فى خدمتها وحمايتها^(١).

فالنظم الإسلامية ما ضاقت عن حاجة، ولا وقفت عقبة فى سبيل مصلحة، أو عدالة، بل وسعت مصالح الناس، على اختلاف أجناسهم، وألستهم، وألوانهم.

ومن شمول العقيدة فى الإسلام نرصد انعكاس ذلك فى شمول الأخلاق فى الإسلام فمن أهم خصائص وسمات الاتجاه الخلقى فى الإسلام: الشمول، وذلك لشمول الإسلام جميع جوانب الإنسان فى الإيمان والعبادة، وفى المعاملة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: اتسمت الأخلاق بالشمول، والقوة وعظمة العلاقة بين الإنسان وخالقه القائمة على العبودية لله وحده، لا شريك له، والدينونة لله وحده، بلا منازع، وشمول هذه العبودية لكل شىء^(٢).

فالاتجاه الخلقى للإسلام لم يدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية، إلا رسم له المنهج الأقوم والأمثل لقواعد السلوك .. ففى جانب الإيمان يقول الرسول ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»^(٣)، فقوله ﷺ صريح فى أن الأخلاق من الإيمان؛ ولذا عد الإسلام براً، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. فالبر صفة للسلوك الخلقى، ومن هنا كانت الأخلاق فى الإسلام لا تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية .. روحية أو جسمية دينية أو دنيوية. عقلية أو عاطفية .. فردية أو اجتماعية، إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع^(٤).

(١) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٥-١١٦.

(٢) سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى، ص ٨١.

(٣) رواه أحمد فى مسنده، ج: ٢، ص ٥٠، ٤٧٢، ٥٢٧.

(٤) د. القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص ١١٠.

وما من خصلة حث عليها القرآن الكريم، إلا كان تقدير جمالها بمقدار نصيبها من الوازع النفساني، أو مقدار ما يطلبه الإنسان من نفسه، ولا يضطره أحد إلى طلبه^(١)، ومن هنا: كان الشمول بين جوانب النفس سمة للاتجاه الخلقى في الإسلام، وأن من أخلاق الإسلام ما يتعلق بالفرد في كافة نواحيه.

- جسما له ضروراته، وحاجاته، يمثل هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقول الرسول ﷺ: « إن لبدنك عليك حقا »^(٢).

- وعقلا له مواهبه وآفاقه. قال تعالى: ﴿ قُلِ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

فالإسلام يتجلى شموله في أنه: يتناول الإنسان والكون والحياة، ثم يتناول الإنسان من جميع جوانبه، الخارجية المادية، والداخلية الروحية؛ ليستقيم سلوكه وحياته وأخلاقه، وقد ربط بينهما بتوازن دقيق، قال الله تعالى: ﴿ وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧]. وبذلك فإن الإسلام لا يفصل بين روح الإنسان وجسده، وبين فرديته وجماعيته، وبين دنياه وآخرته، فلا تنشطر سريرته وحياته أشرطة مختلفة، كما هو الحال في المذاهب البشرية الأخرى^(٣).

والإسلام يلائم بين المادة والروح، ويوفق بين الدنيا والآخرة، ويربط بين العبادة والحياة، بل ينظر إلى الحياة على أنها وحدة متكاملة توظف الإنسان على أن يؤدي حق

(١) العقاد: الفلسفة القرآنية، ج: ٧، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، ص ٣٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه في فتح الباري، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، ولم يرد عليه قضاء، ج ٤، ص ٢٠٩.

(٣) د. محمد نبيل غنايم وعمر سليمان الأشقر وآخرون: دراسات في الثقافة الإسلامية، ط: الثانية، مكتبة الفلاح بالكويت، سنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ص ٢٣.

ربه، وحق نفسه وحق غيره بكل دقة وأمانة وتنسيق، وبهذا يتسنى للإنسان أن يمارس الحياة الاجتماعية العلمية بكل طاقاته، وأشواقه، على أسس مبادئ الإسلام، القائمة على الشمول، والتي توافق الفكرة وتتلاءم مع واقعية الحياة^(١).

ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالأسرة، كالعلاقة بين الزوجين، وفضيلة هذه العلاقة: أنها علاقة سكن، تستريح فيها النفوس إلى النفوس، وتتصل بها المودة والرحمة، والمشاركة القلبية والوجدانية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَعَاشَرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُمْ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

ومن أخلاق الإسلام في الأسرة: العلاقة بين الأبوين والأولاد، والعلاقة بين الأقارب والأرحام.

ومن أخلاق الإسلام: ما يتعلق بالمجتمع في آدابه، وفي اقتصاده، ومعاملاته وفي سياسته، وحكمه^(٢).

ومن أخلاق الإسلام: ما يتعلق بالحيوان والطير؛ لأن من فضائل الإنسان المذهب: أن يكون رءوفا بالضعفاء، عطوفا على البؤساء، رقيقا بالمحتاج إلى الرفق من الخلق، رحيمًا بمن مسه الضر، وعضه الدهر، جاهدًا في كشف ضره، وتفريج كربه، والإحسان إليه، والعطف عليه، متخلقًا بهذه الأخلاق الإسلامية الفاضلة، يجد فيها إمتاع نفسه وانسراح صدره، وارتياح قلبه، بريثًا من القسوة، وتحجر القلب، وجهود

(١) عبد الله ناصح علوان: هذه الدعوة، ما طبيعتها؟ ط: الثانية: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة بالقاهرة، سنة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٦ م، ص ٤٣.

(٢) د. يوسف عبد الهادي الشال: الإسلام وبناء المجتمع الفاضل، ط: الأزهر سنة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧١ م، ص ١٦٩ - ٢٨١.

العاطفة، لا بالنسبة لأخيه الإنسان فحسب، بل وكذلك بالنسبة للحيوان الأعجم، الذى لا يملك لنفسه نفعاً، ولا عنها دفعاً، بل يكون به أرفق، وله أرحم. ويسلك صفات الرحماء من الناس ذوى النفوس الزكية، والقلوب النقية الصافية التى ترحم العاجز الضعيف وتبره، ولو لم يكن من بنى الإنسان، وتبغض الجور والعسف وتمقتة، ولو فى أمر الحيوان^(١).

قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»^(٢).

(١) حسنين محمد مخلوف: الفرق بالحيوان، ط: مطبعة المدنى بالقاهرة، سنة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م، ص ٥.

(٢) رواه أحمد فى مسنده، ج ٢، ص ١٦٠.

المبحث الرابع

مقتضيات العقيدة الصحيحة

خلال ثلاثة عشر عاما في مكة، وعشر سنوات في المدينة كان رسول الله ﷺ يوثق في قلوب المسلمين « لا إله إلا الله » .

كان ﷺ يعيش مقتضيات لا إله إلا الله أمام أصحابه، ويوجههم إليها، ويعلمهم كيف يعيشونها، كأن يعلمهم كيف يعيشون كل لحظة من حياتهم مع الله .

فإذا أصبحوا قالوا: « اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور » وإذا أمسوا قالوا: « اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير »^(١) .

أو قالوا: « أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . رب أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده، وأعوذ بك من شر ما في هذا اليوم وشر ما بعده، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب النار وعذاب القبر »^(٢) .

وكان ﷺ يردد، ويعلم أصحابه أن يرددوا: « اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت . أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »^(٣) .

« اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة . اللهم أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي . اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي،

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) أخرجه البخاري .

واحفظنى من بين يدى، ومن خلفى، وعن يمينى وعن شالى، ومن فوقى، وأعوذ بك أن أغتال من تحتى»^(١).

«اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شىء ومليكه، أشهد ألا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم»^(٢).

«أصبحنا على فطرة الإسلام وعلى كلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»^(٣).

«اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر»^(٤).

«يا حى يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين»^(٥).

«اللهم عافنى فى بدنى. اللهم عافنى فى سمعى. اللهم عافنى فى بصرى. لا إله إلا أنت. اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر، وأعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت»^(٦).

وكان يطلب من أصحابه إذا آووا إلى فراشهم أن يقولوا: «اللهم إنى أسلمت نفسى إليك، ووجهت وجهى إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابتك الذى أنزلت، ونبيك الذى أرسلت»^(٧).

ويقولوا: «باسمك ربى وضعت جنبى، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»^(٨).

(١) أخرجه ابن ماجه.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد.

(٣) الإمام أحمد.

(٤) أبو داود.

(٥) النسائى.

(٦) أبو داود.

(٧) الشيخان.

(٨) متفق عليه.

وإذا استيقظوا أن يقولوا: «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور»^(١).
وإذا لبسوا ثوبا جديداً أن يقولوا: «اللهم لك الحمد أنت ألبستنيه، أسألك خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له»^(٢).

وإذا خرجوا إلى المسجد فى الصباح أن يقولوا: «اللهم اجعل فى قلبى نوراً، وفى لسانى نوراً، واجعل فى سمعى نوراً، واجعل فى بصرى نوراً، واجعل من خلفى نوراً، ومن أمامى نوراً، واجعل من فوقى نوراً ومن تحتى نوراً، اللهم أعطنى نوراً»^(٣).

وإذا أصاب أحدهم هم أن يقول: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم». لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم»^(٤).

أو يقول: «اللهم إنى عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى»^(٥).

كان ﷺ يعلمهم - بالقدوة فى شخصه الكريم - كيف يحيا الإنسان فى معية الله، وكيف يكون فى كل لحظة ذاكراً لله .. صابراً إن أصابه ضرر، شاكراً إن أصابه خير، متطلعاً دائماً إلى عون الله، لاجئاً إليه، مستعيناً به، مستغفراً إياه، مسلماً بقضائه وقدره، مستعيذاً من غضبه، راجياً رضاه، فكانوا كما وصفهم الله: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وتجردوا لله، حتى خلت نفوسهم من حظ نفوسهم كما وصفتهم كتب السيرة، وكان هذا كله - فى فترة التربية فى مكة خاصة - هو مدلول لا إله إلا الله فى نفوسهم، كما تعلموها من رسول الله ﷺ، كما أنزلت فى كتاب الله.

(١) مسلم .

(٢) الترمذى .

(٣) مسلم .

(٤) الشيخان .

(٥) البخارى .

وهكذا - بكل الأدوات والوسائل - توثقت لا إله إلا الله في قلوبهم وتعمقت، فتعلقت قلوبهم بالله برباط متين، يحبونه ويخشونه، ويتطلعون إليه ويرجونه، ويتهيأون لطاعته فيما يأمر.. فقامت في قلوبهم القاعدة التي تحمل البناء.. تحمل التكليف، وتحرك للوفاء.

ولم يتوجه رسول الله ﷺ إلى حل أى من هذه المشاكل في بدء عمله في الدعوة . إنما توجه بأمر ربه إلى الدعوة بلا إله إلا الله، حتى إذا قامت لا إله إلا الله في قلوب العصبة المؤمنة التي يعدها الله؛ لتكون نواة " الأمة الربانية " وتكون هي " القاعدة الصلبة " التي تحمل البناء، وعلم الله من هذه القلوب أنها تجردت له .. أخذت تنزل التكليف، وبدأت «مقتضيات لا إله إلا الله» تتسع حتى شملت الحياة كلها، بما لا بد من حلها؛ لكي تقوم الأمة الربانية على أسس قوية صامدة .. ولكن كان لا بد - في المنهج الرباني - أن تتحول تلك القضايا إلى «متطلبات إيمانية» مرتبطة بلا إله إلا الله، لا مجرد اهتمامات بشرية تخضع لأهواء البشر ومعايير البشر، وأن يكون الجهد الذي يبذل في حلها قد بذل ابتغاء مرضاة الله، لا لمجرد المنفعة الدنيوية التي قد تنتج عنها، وحين حدث ذلك بالفعل كان الأداء على نسق غير مسبوق في البشرية، وكانت النتائج شيئاً يشبه المعجزات! (١) .

عندما يذهب الإيمان: فإن الفطرة بذاتها التي خلقها الله عابدة لله على استقامة، وتكون عرضة للمرض والانحراف بتأثير البيئة الفاسدة التي تفسد صفاءها واستقامتها. وحين تختل الفطرة، وتنحرف عن استقامتها، يصيبها كثير من الأمراض.. أمراض في الرؤية، وأمراض في السلوك. أمراض في الفرد وأمراض في المجتمع .. أمراض في الكيان النفسي، والكيان الاجتماعي، والكيان السياسي، والكيان الاقتصادي، والكيان الأخلاقي .. وفي كل جانب من جوانب النفس، وكل جانب من جوانب الحياة . يهبط الإنسان مع الشرك دركات من الهبوط، ومن ثم فقد معنى وجوده!

إن الإنسان حين يفقد الإيمان بالله واليوم الآخر، لا يستطيع أن يرى الصورة في تمامها، الذي أنشأه الله «بالحق» وخلق من أجله السموات والأرض «بالحق» فيراها عندئذ شوهاء مبتورة غير ذات معنى ولا حكمة ولا قيمة.

(١) محمد قطب: لا إله إلا الله عقيدة وشريعة، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٣، ص ٤٢.

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ ﴿٢٧﴾ أَمْ جَعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨-٢٨].

﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٤].

وحين يفقد الإنسان معنى وجوده ينطلق هائما لا يدرك لحياته معنى ولا حكمة، يستحيل عليه أن يؤمن «بالقيم» التى ترفعه عن عالم الحيوان، فينتكس إلى أسفل، فيصبح أضل من الحيوان: ﴿ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وفى عالم الحيوان يكون الهم الأكبر - إلى جانب قضاء الشهوات - هو صراع البقاء؛ فتلتقى أنواع الحيوان المختلفة؛ لتتصارع وتكون الغلبة للأقوى، فيأكل القوى الضعيف، أو يزيحه من الطريق.

أما فى عالم «الإنسان» فقد جعل الله للحياة هدفاً آخر، ومعياراً آخر: ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

والصراع الذى كتبه الله فى عالم الإنسان ليس صراع الغلبة من أجل الغلبة، ولكن من أجل إصلاح الأرض: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فإلى أى درك يهبط الإنسان حين يفقد معنى وجوده، ويتعامل بعضه مع بعض على مستوى الحيوان؟ وهو فاعل ذلك لا محالة إذا هبط عن الإيمان بما لا تدركه الحواس، ففقد الإيمان بالله واليوم الآخر.

إن الإيمان بالله وحده بلا شريك هو حق الله على العباد كما قال رسول الله ﷺ: «قال: أتدرون ما حق الله على العباد؟ حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»^(١).

والحق أن الجهل بالسنن الربانية فإنه يجعل الناس في غفلة عن حقيقة مذكورة في كتاب الله في أكثر من سورة، وهى أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل التمكين في الحياة الدنيا خاصاً بفريق من الناس دون فريق، بل قال سبحانه: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًّا وَهَنُوًّا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

فالدنيا كما قال رسول الله ﷺ لا تساوى عند الله جناح بعوضة؛ لذلك يعطى الكافر منها بقدر ما يجتهد في الحصول عليها: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥].

والدنيا - من ناحية أخرى - هى محل الابتلاء الذى خلق الإنسان من أجل أن يخوضه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

فلو أعطاه الله لفريق من البشر دون فريق، لم يعد للابتلاء معنى .. إنما يكون له معنى حين تتاح للبشر جميعاً، ثم يختبر الناس: أيهم تفتنه الحياة الدنيا فتشغله عن ربه، وعن اليوم الآخر، وأيهم يأخذ قسطه من متاع الأرض وهو عابد لربه، ملتزم بأوامره، ومن ثم فإن التمكين فى ذاته يمكن أن يتم للمؤمنين وللكافرين سواء - إذا اتخذوا الأسباب - دون أن يتعلق ذلك بالإيمان، أو الكفر .. ومع ذلك فهناك فروق يغفلها الناس حين تصيبهم سطحية التفكير، وغلبة الشهوات، والغفلة عن الآخرة.

يقول الله تعالى عن الكفار والمعاندين: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

(١) أخرجه مسلم .

ويقول في موضع آخر: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

فأبواب التمكين المادى مفتوحة كلها - أو يمكن أن تفتح كلها - للكفار المعاندين. ولكن باب البركة لا يفتح عليهم؛ لأن الله اختص به المؤمنين، فلا يناله الكفار ولو فتح عليهم الرخاء المادى، الذى يظنه أصحاب الشهوات غاية الغايات فى الحياة الدنيا .. ومن أراد مثالا فليُنظر إلى الغرب اليوم - بكل ما فيه من تقدم علمى ومادى وتكنولوجيا وحربى - ولينظر إلى ما يعانى به الناس فيه من القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية، والخمر والمخدرات والجريمة، واللهث الدائم وراء تحقيق الشهوات .. دون بركة فى الوقت والمال ولا الأسرة ولا الذرية، ولا المعانى التى تليق بالإنسان، ولا الطمأنينة كذلك، فإنها وقف على المؤمنين الذين يذكرون الله: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهذا وذاك فضلا عن كون هذا التمكين - الذى يتاح للكفار فى الأرض للاستدراج - موقوت مهما طال: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥]. ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى هُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

وهذا كله فى أمور الحياة، أما الآخرة فلها شأن آخر .. ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهى خالصة للذين آمنوا: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فأما الذين لا يؤمنون بها، ويقولون: دعونا من ذكرها، وحدثونا عن الحياة الدنيا .. فما أصبرهم على النار !. كلا، لا تستوى حياة الإنسان بالكفر والإيمان فى الحياة الدنيا، ولا الآخرة.

﴿ أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨].

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا تَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

وما أضيق أفق الإنسان، وما أضل تصوراته حين يحصر اهتمامه وإيمانه بالحياة الدنيا وحدها، منقطعة عن الآخرة. وما أوسع أفقه، وما أصوب تصوراته حين يؤمن بالآخرة، ويضع الحياة الدنيا في وضعها الصحيح وحجمها الحقيقي .

المبحث الخامس

المفهوم الشامل للإيمان

نعنى بالعقيدة؛ الإيمان بأركانه الستة، كما جاء في الحديث الذى رواه الإمام مسلم بإسناده عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ :

« ... قال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث وتؤمن بالقدر كله »^(١) .

وفي حديث عمر رضي الله عنه الذى أخرجه مسلم مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: « قال فأخبرنى عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »^(٢) .

والعقيدة لغة فعيلة من عقد بمعنى معقودة (بمعنى اسم المفعول) عقد الحبل والبيع والعهد : يعقده : شده والعقد: العهد^(٣) . فكأن العقيدة هى العهد المشدود والعروة الوثقى، وذلك لاستقرارها فى القلب، ورسوخها فى الأعماق^(٤) .

فأولا الشهادتان: « لا إله إلا الله، محمد رسول الله » هما القاعدة الأساسية الأولى التى يقوم عليها صرح هذا الدين، وهما الطريق الوحيد الذى يوصل سالكه إلى دار السلام ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿١﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢﴾ » [المائدة: ١٥-١٦] .

وهذه القاعدة - توحيد الله فى الألوهية - هى الركن الأساسى بل الأساس المكين الذى قام عليه كل دين نزل من عند الله .

(١) صحيح مسلم : ج ١، ص ٣١، ط صبيح .

(٢) انظر شرح الأربعين النووية، ط قطر، ص ١٩ .

(٣) القاموس المحيط باب الدال فصل العين، ج ١، ص ٣١٥ .

(٤) عبد الله عزام: العقيدة وأثرها فى بناء الجيل، عمان، مكتبة الأقصى، ١٩٨٤، ص ٢٣ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وهذه القاعدة "لا إله إلا الله" تعنى فى أبسط صورها أن هذا الكون منبثق عن إرادة هذا الإله الواحد. بأمره يسير، وبقدره تدبر أموره . وكل خلق من مخلوقاته أمره بيده، لا يخرج عن إرادته، ولا يند عن مشيئته ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠]. ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى: ١-٣]. ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦]. هذه نقطة لا ينبغى أن تغيب عن بالنا. إن كل شىء فى الكون صنع بيد الله العزيز الحكيم ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧].

وأما النقطة الثانية فهى: أن كل مخلوق فى هذا الكون جندى من جنود الله، يؤمر فيطيع ويدعى فيلبى .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣].

﴿ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١]. فالسماوات والأرض وما فيهن جنود مطيعة لرب العالمين.

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَبِيلَتُونَ ﴾ [الروم: ٢٦]. أى مطيعون خاشعون .

﴿ سَبِّحِ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحديد: ١].

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولذا فالجبال والماء والأرض والسماء كلها مخلوقات لله، وجند من جنوده ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤].

فلقد وجه رب العالمين الأمر إلى النار فأطاعت ﴿ يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ
إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ونادى الجبال فأصغت: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ
وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ [سبأ: ١٠].

وأما الثالثة: فقد يسخر الله بعض جنوده لطاعة عبد من عبيده ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ
غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ
وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ ﴾ [سبأ: ١٢-١٣]. ويقول لموسى عليه السلام:
﴿ أَضْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣].
﴿ أَضْرِبْ بَعْصَاكَ الْحَجَرَ فَأَنْجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وأما المسألة الرابعة: فكل كائن من مخلوقات الله له منهاج رباني يسير عليه لا
يستطيع الخروج عنه قيد أنملة ولا شعرة، فالشمس لا يمكنها أن تخرج عن المدار
الذي أمرها الله أن تدور فيه ولو خرجت زاوية واحدة عن محورها لتحطمت
وحطمت الكثير، وكذلك القمر، والأرض، وهذا هو ناموس الله في هذا الكون لكل
خلق عدا الثقلين الإنس والجن.

وقد تتجلى مظاهر هذه العبودية أحياناً لعبد من عبيد الله بإرادة الحاكم الأمر.
ومن ذلك ما يحدثنا الإمام أبو الحسين مسلم بإسناده عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال:
قال رسول الله ﷺ: « إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسَلِّمُ عَلَىَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، وإني
لأعرفه الآن »^(١).

هذا وقد يكشف الله طرفاً من هذه العبودية لغير الأنبياء فقد تتجلى بإسفار
ووضوح لعباده الصالحين، ومن ذلك ما يروى أنه: لما بعث أبو بكر الصديق رضي الله عنه
العلاء بن الحضرمي في حرب المرتدين إلى البحرين فسلخوا مفازة، وعطشوا عطشاً
شديداً، حتى خافوا الهلاك، فنزل وصلى ركعتين، ثم قال: يا حليم، يا عليم، يا علي،

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذرى، تحقيق: الألباني ١٦٣ / ٢.

يا عظيم اسقنا! فجاءت سحابة كأنها جناح طائر، فقعقت عليهم وأمطرت، حتى ملأوا الآنية وسقوا الركاب، ثم انطلقنا حتى أتينا دارين، والبحر بيننا وبينهم، وفي رواية أتينا على خليج من البحر ما خيض فيه قبل ذلك اليوم، ولا خيض بعد، فلم نجد سفناً، وكان المرتدون قد أحرقوا السفن فصلى ركعتين ثم قال: يا حليم، يا عليم، يا على، يا عظيم، أجزنا ثم أخذ بعنان فرسه ثم قال: جوزوا باسم الله، قال أبو هريرة رضي الله عنه: فمشينا على الماء، فو الله ما ابتل لنا قدم، ولا خف ولا حافر، وكان الجيش أربعة آلاف، وفي هذا يقول هفيف بن المنذر:

ألم تر أن الله ذل بحره وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دعانا الذي شق البحار فجاءنا بأعظم ممن فلق البحار الأوائل ^(١)

ثانياً: وأما الإيمان بالملائكة فهو جزء من عقيدتنا ونخبرنا القرآن أن الملائكة موكلون بحفظ البشر وحمايتهم، وهم مكلفون بإحصاء أعمالهم وتسجيلها ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّأَعْلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤].

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ تَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١٠-١١].

فالملائكة حفظة للبشر، يحصون عليهم أعمالهم، ويقدمون كتب أعمالهم إلى رب العالمين، ومنهم موكل بقبض أرواح البشر وهم كذلك يستغفرون للذين آمنوا، ويحضرون مجالس الرحمة والذكر والتلاوة كما في الأحاديث الصحيحة، وهناك ملكان حافظان يلازمان الإنسان حيث حل وأينما سار لا يفارقانه أبداً إلا في بعض المواطن كالخلاء مثلاً.

(١) انظر: أسباب سعادة المسلمين وشقائهم في ضوء الكتاب والسنة للكاندهول، ص ٦٠.

ثالثاً: وأما الإيمان بالكتب السماوية فهو جزء من العقيدة والإيمان بصحف إبراهيم والتوراة المنزلة على سيدنا موسى عليه السلام والإنجيل على سيدنا عيسى عليه السلام والزبور على سيدنا داود عليه السلام والقرآن على سيدنا محمد عليه السلام وعليهم الصلاة والسلام أجمعين .

رابعاً: وأما الإيمان بالرسول: فالعقيدة الإسلامية تعتبر أن الإيمان بكل رسول مرسل هو جزء منها بحيث يعتبر من يجحد رسالة أى رسول خارجاً من إطار هذا الدين ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانِكَ رَبَّنَا ۖ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فمن كفر بأى رسول فقد كفر بأصل الرسالات وكفر القرآن، لأنه صرح بأسماء الرسل في النصوص القطعية الدلالة والثبوت .

خامساً: والإيمان باليوم الآخر، فهو كذلك من القواعد المكيمة في هذا الدين ويكون الأساس في كل دين نزل من عند رب العالمين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالْنَصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ۝ ﴾ [البقرة: ٦٢].

فالإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح هذه القاعدة بأركانها الثلاثة هى عماد كل دين.

وهذا الدين الذى بعث به محمد عليه السلام يعتبر أن الحياة جسر إلى الآخرة وأن الإنسان يمر بأطوار ومراحل فمن رحم الأم إلى هذه الأرض إلى القبر فالبعث، فالخسر، فالميزان، فالصراط ثم إلى جحيم مستعر أو إلى نعيم مستقر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

والحق أن الإيمان بالآخرة هو صمام الأمان فى هذه الأرض وهو الضابط الوثيق الذى يحرس الأخلاق والحارس الأمين الذى يضمن تنفيذ الشريعة فى هذه الدنيا. فهو الذى يمنع لحظة العين أن تمتد إلى محرم ويمنع النفس أن تهجس بهواجس

الشر ويردع الفم أن يهمس ولو بكلمة واحدة لا يرضاها ربه؛ لأنها كلها مسجلة معروضة محصية عليه؛ أنفاسه وكلماته وحر كاته .

﴿ وَخُذْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ ﴿١٣﴾ أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿ [الإسراء: ١٣-١٤].

سادسًا: وأما القدر فهو المحرك الأصيل للنفس البشرية، وهو الدافع الحقيقي للعمل في ميدان الحياة، وأول ما يطلعنا من نصوص القدر الرزق والأجل. فقد ذكرت في أكثر من موضع في الكتاب العزيز مع إقرار أنها ثابتة محددة، ولا يغادر المرء هذه الأرض قبل أن ينال كل رزقه ويستنفد جميع أجله. فلن يموت إلا بقدر، ولن يستطيع أحد أن ينقص من رزقه قرشًا واحدًا مهما علا جاهه، وعظم سلطانه.

﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧].

« واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف »^(١).

والأجل المحدود والرزق المحدود مع العلم القطعي أن الله عز وجل بيده ملكوت كل شيء، وإليه يرجع الأمر كله، وله من في السماوات ومن في الأرض، وأنه إليه ترجع الأمور.

هذه الأمور كلها كانت تدفع بأحدهم في أتون المعركة تاركًا وراءه أهله دون معين ولا كفيل إلا الله، وحسبك كلمة أبي بكر يوم تبوك إذ جاء إلى الرسول ﷺ بجميع ماله فقال ﷺ: ماذا تركت لأهلك؟ فقال: « تركت لهم الله ورسوله ».

ولذا فإننا نرى أن آيات العقيدة جاءت منبثة في معرض آيات القتال والجهاد خاصة الآيات التي تقرر أن الحياة والموت بيد الله ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

(١) حديث حسن صحيح رواه الترمذي عن عبد الله بن عباس مرفوعا .

إن استقرار هذه العقيدة في أعماق النفس يجعلها عزيزة فلا تذلل، تقف أمام كل قوى الأرض لا ترهب سلطانا، ولا تستخذى أمام صولة الملك، وإغراء المال، هذه العقيدة صاحبها من أحوال الأرض ومستنقع الطين . فيقف في المرتقى السامى ينظر إلى الأرض من علٍ مع التواضع، وبالعزة مع المحبة والتضامن دون استطالة ولا بغى على الناس، يود لو يرفعهم إلى هذا المستوى الذى رفعه الله إليه .

بهذه العقيدة أضحى الرعيل الأول من الصحب الكرام يعيشون بحسهم وأرواحهم في الآخرة مع أجسادهم تدب على هذه الأرض، هم يتحركون فوق هذه المعمورة مع أن أنظارهم مشدودة بقوة إلى الآخرة، إلى الجنة.

روى الطبرانى بإسناده عن الحارث بن مالك الأنصارى رضي الله عنه أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟» قال: أصبحت مؤمنا حقا. قال: «انظر ما تقول، فإن لكل شىء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفت نفسى عن الدنيا، فأسهرت ليل وأظمأت نهارى. وكأنى أنظر إلى عرش ربه بارزا. وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاعون فيها. فقال: «يا حارث عرفت فالزم»^(١) ثلاثا، ولقد ذكر هذا الصحابى الذى استحق شهادة رسول الله ﷺ له بالمعرفة، ما يصور مشاعره، ويُنْبئ بما وراء هذه المشاعر من عمل وحركة. فالذى كأنه ينظر إلى عرش ربه بارزا، وينظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتضاعون فيها، لا ينتهى إلى مجرد النظر، إنما هو يعيش ويعمل ويتحرك في ظل هذه المشاعر القوية المسيطرة التى تصبغ كل حركة وتؤثر فيها. وذلك إلى جانب ما أسهر ليله وأدام نهاره، وكأنها هو ناظر إلى عرش ربه بارزا.

هذا مثل من كثير يبين كيف ترجمت العقيدة في نفوس الصحابة، وتجسدت في أناس من لحم ودم، يدبون على الأرض فيتحرك بحركتهم القرآن.

(١) في ظلال القرآن، ج ٩، ص ٢٤١ .

والآن، دعنا نستمع إلى الإمام أحمد^(١) وقد دخل عليه رجل فقال: عظمى يا إمام. فقال له: إن كان الله قد تكفل بالرزق فاهتمامك لماذا؟ وإن كانت النار حقا فالمعصية لماذا؟ وإن كانت الدنيا فانية فالطمأنينة لماذا؟ وإن كان الحساب حقا فالجمع لماذا؟ وإن كان كل شيء بقضاء الله وقدره فالخوف لماذا؟ وإن كان سؤال منكر ونكير حقا فالأنس لماذا؟ فخرج الرجل من عند الإمام، وعاهد نفسه أن يرضى بقضاء الله وقدره .

(٢) محمد أمين المصري: إملاءات في العقيدة، دمشق، د.ت، ص ١٧ .

المبحث السادس

حقيقة الإيمان

ما مفهوم الإيمان الذى نعينه فى هذا الكتاب، ونحاول تجلية أثره فى النفس والحياة؟

الإجابة عن هذا السؤال لا تتضح إلا إذا عرفنا مفهوم الإيمان، ومتعلق الإيمان، أما مفهوم الإيمان ومعناه فإنه ليس مجرد إعلان المرء بلسانه أنه مؤمن، فما أكثر المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨-٩].

وليس هو مجرد قيام الإنسان بأعمال وشعائر اعتاد أن يقوم بها المؤمنون، فما أكثر الدجالين الذين يتظاهرون بالصالحات، وأعمال الخير، وشعائر التعبد، وقلوبهم خراب من الخير والصلاح والإخلاص لله: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢].

وليس هو مجرد معرفة ذهنية بحقائق الإيمان، فكم من قوم عرفوا حقائق الإيمان، ولم يؤمنوا ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]. وحال الكبر أو الحسد أو حب الدنيا بينهم وبين الإيمان بما عملوه من بعد ما تبين لهم الحق: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

إن الإيمان فى حقيقته ليس مجرد عمل لسانى ولا عمل بدنى، ولا عمل ذهنى، إن الإيمان فى حقيقته عمل نفسى يبلغ أغوار النفس، ويحيط بجوانبها كلها من إدراك وإرادة ووجدان.

فلابد من إدراك ذهنى تنكشف به حقائق الوجود على ما هى عليه فى الواقع، وهذا الانكشاف لا يتم إلا عن طريق الوحي الإلهى المعصوم.

ولابد أن يبلغ هذا الإدراك العقلي حد الجزم الموقن، واليقين الجازم، الذى لا يزلزله شك ولا شبهة: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ [الحجرات: ١٥].

ولابد أن يصحب هذه المعرفة الجازمة إذعان قلبى، وانقياد إرادى، يتمثل فى الخضوع لحكم من آمن به مع الرضا والتسليم: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]. ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]. ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولابد أن يتبع تلك المعرفة، وهذا الإذعان حرارة وجدانية قلبية؛ تبعث على العمل بمقتضيات العقيدة، والالتزام بمبادئها الخلقية والسلوكية، والجهاد فى سبيلها بالمال والنفس، ولهذا نجد القرآن الكريم يصف المؤمنين فيقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۚ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۚ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

والقرآن الكريم يعرض دائماً الإيمان فى أخلاق حية، وأعمال ناصعة، يتميز بها المؤمنون، من الكفرة والمنافقين: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ ٥ ﴾ [المؤمنون: ١-٥].

وقال تعالى فى وصف المؤمنين الصادقين: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

يقول أحد العلماء في تفسير هذه الآية:

هذه العناصر والمقومات التي ذكرتها الآيات هي التي تكون «الإيمان الحق»، إن شئت قلت «العقيدة الحقّة» وإذا فقد بعض هذه العناصر فإن ما بقى منها لا يستحق أن يسمى «إيماناً» أو عقيدة.

يمكن أن تسمى «فكرة» أو «نظرية» أو «رأياً» أو أى عنوان من هذه العناوين، أما الإيمان الحق فهو الذى تشرق شمسُه على جوانب النفس كلها، فتنفذ إليها أشعتها حاملة الضوء، والحرارة والحياة. أجل، عندما تنفذ هذه العقيدة إلى العقل فتقنعه وتطمئنه، وإلى القلب فتلهزه وتحركه، وإلى الإرادة فتدفعها وتوجهها، وإذا اقتنع العقل، وتحرك القلب، واتجهت الإرادة، استجابت الجوارح، واندفعت للعمل، استجابت الرعية للرعى المطاع.

ولنا أن نتأمل ما قاله الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - مفرقاً بين الرأى والعقيدة^(١)، قال: «فرق كبير بين أن ترى الرأى وأن تعتقده، وإذا رأيت الرأى فقد أدخلته فى دائرة معلوماتك، وإذا اعتقدته جرى فى دمك، وسرى فى مخ عظامك، وتغلغل فى أعماق قلبك».

ذو الرأى فيلسوف، يقول: «إنى أرى صواباً قد يكون فى الواقع باطلاً، وهذا ما قمت عليه اليوم، وقد أقوم على عكسه غداً، وقد أكون مخطئاً فيه وقد أكون مصيباً».

أما ذو العقيدة فجازم بات، لا شك عنده ولا ظن، عقيدته هي الحق، لا محالة هي الحق اليوم، وهي الحق غداً، خرجت عن أن تكون مجالاً للدليل وسمت عن معترك الشكوك والظنون.

ذو الرأى فاتر أو بارد، إن تحقق ما رأى ابتسم ابتسامة هادئة ورزينة، وإن لم يتحقق ما رأى فلا بأس، فقد احترز من قبل بأن رأيه صواب يحتمل الخطأ ورأى غيره خطأ يحتمل الصواب، وذو العقيدة حار متحمس، لا يهدأ إلا إذا حقق عقيدته.

ذو الرأى سهل أن يتحول ويتحور، هو عند الدليل، أو عند المصلحة تظهر فى شكل دليل، أما ذو العقيدة فخير مظهر له قول رسول الله ﷺ: «لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى شألى على أن أدع هذا الذى جئت به ما تركته».

(١) أحمد أمين: فى كتاب فيض الخاطر، ج ١.

الرأى جثة هامدة، لا حياة لها ما لم تنفخ فيها العقيدة من روحها، والرأى كهف مظلم حتى تلقى عليه العقيدة من أشعتها، والرأى مستنقع راكد يبيض فوقه البعوض، والعقيدة بحر زاخر لا يسمح للهوام الوضيعة أن تتوالد على سطحه، والعقيدة نجم يتألق.

الرأى يخلق المصاعب، ويضع العقبات، ويصغى لأمانى الجسد ويثير الشبهات ويبعث على التردد. والعقيدة تقتحم الأخطار، وتزلزل الجبال، وتلفت وجه الدهر وتغير سير التاريخ، وتنسف الشك والتردد، وتبعث بحزم اليقين، ولا تسمح إلا لمراد الروح.

محتوى الإيمان الذى نغنيه :

ولا يكفى أن نعرف حد الإيمان ومفهومه حتى نعرف محتواه ومتعلقه، فلا بد أن نعرف أى إيمان نغنى فى دراستنا هذه؟

إنه الإيمان الذى يتجسد فى خاتمة العقائد السماوية، عقيدة الإسلام، كما بينها القرآن الكريم، وهدى الرسول العظيم، متمثلة فى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين.

هذه العقيدة هى التى تحل لغز الوجود، وتفسر للإنسان سر الحياة والموت وتجيّب عن أسئلته الخالدة: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟ هذه العقيدة ليست من مستحدثات الإسلام، ولا مما ابتكره محمد عليه الصلاة والسلام، إنها العقيدة المصفاة، التى بعث بها أنبياء الله جميعاً، ونزلت بها كتب السماء قاطبة، قبل أن ينال منها التحريف والتبديل، إنها الحقائق الخالدة التى لا تتطور ولا تتغير، عن الله وعن صلته بهذا العالم.. ما يبصر منه وما لا يبصر، وعن حقيقة هذه الحياة ودور الإنسان فيها وعاقبته بعدها. إنها الحقائق التى عملها آدم لنبيه وأعلنها نوح فى قومه، ودعا إليها هود وصالح عاداً وثموداً، ونادى بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من رسل الله، وأكدها موسى فى توراته، وداود فى زبوره وعيسى فى إنجيله.

كل ما فعله الإسلام، هو أنه نقى هذه العقيدة من الشوائب الدخيلة، وصفافها من الأجسام الغريبة، التى أدخلتها العصور عليها، فكدرت صفاءها، وأفسدت توحيدها بالشفاعات، واتخاذ الأرباب من دون الله، وأفسدت تنزيهاها بالتشبيه والتجسيم، ونسبة ما فى البشر من قصور ونقص إلى الله تعالى علواً كبيراً، وشوهت

نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان، وعلاقته بالله ووحيه وما جاء به من تعاليم، كما عرض الإسلام هذه العقيدة عرضاً جديداً، يليق بالرسالة التي اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالات الإلهية؛ وأن تكون غاية لكل البشر؛ إلى قيام الساعة.

جاءت عقيدة الإسلام فنقت فكرة التوحيد وكمال الألوهية مما شابها على مر العصور، ونقت فكرة النبوة الرسالة مما عراها من سوء التصور، ونقت الجزاء الأخرى مما دخل عليه من أوهام الجاهلين؛ وتحريف المغالين وانتحال المبطلين؛ ودجل المشعوذين.

والعناصر الأساسية لهذه العقيدة هي الإيمان بالله؛ والإيمان بالنبوات؛ والإيمان بالآخرة. ويمكن أن نفصل القول في الإيمان بالله واليوم الآخر؛ والإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده؛ والإيمان بوحدانيته؛ والإيمان بكماله.

وجود الله تعالى :

لقد قامت الأدلة على أن وراء هذا الكون قوة عليا تحكمه وتديره وتشرف عليه سماها أحدهم « العلة الأولى » وسماها غيره « العقل الأول » وسماها ثالث « المحرك الأول » وسماها القرآن العربى المبين، وكتب السماء بهذا الاسم الجامع لصفات الجمال والجلال «الله».

هذه القوة العليا، وبعبارة أخرى: هذا الإله العظيم ليس فى استطاعة العقل البشرى إدراك كنهه ولا معرفة حقيقته، كيف وقد عجز عن معرفة كنه ذاته، وعن كنه النفس، وحقيقة الحياة، وكثير من حقائق الكون المادية؟ وما عرف إلا آثارها فكيف يطمع فى معرفة ذات الله العلى الكبير؟ ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الأنعام: ١٠٢-١٠٣].

هذا الإله ليس إله فصيلة محدودة، ولا إله شعب خاص، ولا إله إقليم معين، وإنما هو «رب العالمين» «رب السماوات والأرض» «رب المشرق والمغرب» ﴿ قُلْ أَغْيَرُ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولنستمع إلى ما نصه القرآن علينا من حوار موسى وفرعون؛ يتبين لنا شمول ربوبيته سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [١٢] قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿ ١٤ ﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَبْغُونَ ﴿ ١٥ ﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿ ١٦ ﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿ ١٧ ﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ ١٨ ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨].

وقد دلل القرآن على وجود الله بطرق عديدة منها:

١ - يلفت العقول والأذهان إلى ما في الكون من آيات تنطق بأن وراءها صانعاً حكيمًا. وهو قانون بديهي عند العقل الذي يؤمن بمبدأ «السببية» إيماناً طبعياً لا يحتاج إلى اكتساب أو تدليل: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، هذا الخلق لا بد له من خالق، وهذا النظام لا بد له من منظم: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ﴿ ٣٥ - ٣٦ ﴾. [الطور: ٣٥ - ٣٦]. ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴾ ﴿ ١٠ ﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿ ١١ ﴾ [طه: ٤٩-٥٠].

٢ - ويستثير الفطرة الإنسانية السليمة التي بها يدرك المرء إدراكاً مباشراً أن له رباً وإلهاً عظيماً يكلؤه ويرعاه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وإذا اختفت هذه الفطرة في ساعات الرخاء واللهاو فإنها تعود إلى الظهور عند الشدة والبأساء، وسرعان ما يذوب الطلاء، وينكشف المعدن الأصيل في النفوس البشرية، فتعود إلى ربها داعية متضرعة: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ فِيهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ

مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُجِيتْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ [يونس: ٢٢].

وتبدو هذه الفطرة حين يفاجأ الإنسان بالسؤال عن مصدر هذا الكون ومدبره فلا يملك بفطرته إلا أن ينطق معلناً «الله»: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦١]. ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَمَنْ يُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

ويستشهد القرآن بالتاريخ الإنساني على أن الإتيان بالله وبرسله كان سفينة النجاة لأصحابه، وأن التكذيب به وبرسله كان نذير الهلاك والوبار، ففي نوح يقول: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٤]. وفي هود يقول: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢]. وفي صالح وقومه ثمود يقول: ﴿ فَنَلَّكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النمل: ٥٢-٥٣].

وفي رسل الله جميعاً يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَتْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

إنما الله إله واحد:

وهو تعالى إله واحد ليس له شريك، ولا له مثل في ذاته أو صفاته أو أفعاله: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

﴿وَاللَّهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وكل ما في الكون من إبداع ونظام يدل على أن مبدعه ومدبره واحد ولو كان وراء هذا الكون أكثر من عقل مدبر، أو أكثر من يد تنظم، لاختل نظامه، واضطربت سننه، وصدق الله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

هو تعالى واحد في ربوبيته، فهو رب السماوات والأرض، ومن فيهن وما فيهن، خلق كل شيء فقدره تقديراً، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ولا يستطيع أحد من خلقه أن يدعى أنه الخالق أو الرزاق أو المدبر لذرة في السماء أو الأرض ﴿وَمَا يُلْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١١].

وهو تعالى واحد في ألوهيته، فلا يستحق العبادة إلا هو، ولا يجوز التوجه بخوف أو رجاء إلا إليه. فلا خشية إلا منه، ولا ذل إلا إليه، ولا طمع إلا في رحمته، ولا اعتماد إلا عليه، ولا انقياد إلا لحكمه. والبشر جميعاً - سواء أكانوا أنبياء وصديقين أم ملوكاً وسلاطين - عباد الله، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فمن ألّه واحداً منهم، أو خشع له وحنى رأسه، فقد جاوز به قدره، ونزل بقدر نفسه.

ومن ثم كانت دعوة الإسلام إلى الناس كافة، وإلى أهل الكتاب خاصة: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ومن هنا كان عنوان العقيدة الإسلامية يتمثل في هذه الكلمة العظيمة التي عرفت لدى المسلمين بكلمة «التوحيد» وكلمة «الإخلاص» وكلمة «التقوى» وهي: «لا إله إلا الله».

كانت «لا إله إلا الله» إعلان ثورة على جبابرة الأرض وطواغيت الجاهلية، ثورة على كل الأصنام والآلهة المزعومة من دون الله: سواء كانت شجراً، أم حجراً، أم بشراً.

وكانت «لا إله إلا الله» نداءً عالميًا لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان والطبيعة وكل من خلق الله وما خلق الله.

وكانت «لا إله إلا الله» عنوان منهج جديد، ليس من صنع حاكم ولا فيلسوف، إنه منهج الله الذي لا يعنو الوجود إلا له ولا تنقاد القلوب إلا لحكمه ولا تخضع إلا لسلطانه.

وكانت «لا إله إلا الله» إيذانًا بمولد مجتمع جديد، يغير مجتمعات الجاهلية، مجتمع متميز بعقيدته متميز بنظامه، لا عنصرية فيه ولا إقليمية ولا طبقية؛ لأنه ينتمي إلى الله وحده، ولا يعرف الولاء إلا له سبحانه.

ولقد أدرك زعماء الجاهلية وجبايرتها ما تنطوى عليه دعوة «لا إله إلا الله» من تقويض عروشهم، والقضاء على جبروتهم وطغيانهم، وإعانة المستضعفين عليهم، فلم يألوا جهدًا في حربها، وقعدوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجًا.

لقد كانت مصيبة البشرية الكبرى أن أناسًا منهم جعلوا من أنفسهم أو جعل منهم قوم آخرون آلهة في الأرض أو أنصاف آلهة، لهم يخضع الناس ويخشعون، ولهم يركعون ويسجدون، ولهم ينقادون ويسلمون. لكن عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين فلم يعد عندهم بشر إلهًا ولا نصف إله، أو ثلث إله، أو ابن إله، أو محلاً حل فيه الإله! ولم يعد بشر يسجد لبشر أو يقبل الأرض بين يدي بشر، وهذا أصل الأخوة الإنسانية الحققة وأصل الحرية الحققة، وأصل الكرامة الحققة، إذ لا أخوة بين عابد ومعبود، ولا حرية لإنسان أمام إله أو مدعى ألوهية، ولا كرامة لمن يركع أو يسجد لمخلوق مثله أو يتخذة حكمًا من دون الله.

قال أبو موسى الأشعري: انتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه، وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سباطين، وقد قال عمرو وعمارة - وهما مندوبا مشركي قريش بمكة إلى النجاشي - إنهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا بدرنا من عنده القسيسون والرهبان:

اسجدوا للملك، فقال جعفر بن أبي طالب: لا نسجد إلا لله.

فرغم أنهم مضطهدون ومهاجرون، وغرباء لاجئون، وهم في أرض هذا الملك وفي حوزته، أبوا أن يفرطوا في توحيدهم لحظة واحدة فيسجدوا لغير الله، وأعلنها جعفر كلمة أصبحت شعارًا لكل مسلم "لا نسجد إلا لله".

كمال الله تعالى: ولا بد مع الإيمان بوجود الله ووحدانيته من الإيمان بأنه تعالى متصف بكل كمال يليق بذاته الكريمة، منزّه عن كل نقص: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۖ﴾ [الإخلاص: ٢-٤]. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

دلل على ذلك: هذا الكون البديع وما فيه من إحكام عجيب، وهدت إلى ذلك الفطرة البشرية النيرة، وفصلت ذلك رسالات الله تعالى إلى أنبيائه.

فهو سبحانه العليم الذى لا يخفى عليه شىء: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمْتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهو العزيز الفعال لما يريد، الذى لا يغلبه شىء، ولا يقهر إرادته شىء ﴿قُلْ أَلَلَّهُمْ مِثْلُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ۚ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وهو القدير الذى لا يعجزه شىء، يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويحيى العظام وهى رميم، ويعيد الخلق كما بدأهم أول مرة وهو أهون عليه ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

وهو الحكيم الذى لا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يترك شيئاً سدى، ولا يفعل فعلاً، أو يشرع شرعاً إلا لحكمة، عرفها من عرفها، وجهلها ومن جهلها، وهذا ما شهد به الملائكة فى الملاء الأعلى: ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وما شهد به أنبياء الله وأوليائؤه، وأولو الألباب من عباده: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطَلًا سُبْحَنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وهو الرحيم الذي سبقت رحمته غضبه، ووسعت رحمته كل شيء، وقد حكى القرآن دعاء الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وقال: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقد بدأ سور القرآن «بسم الله الرحمن الرحيم» للدلالة على سعة رحمته وتقوية الرجاء في قلوب عباده وإن تورطوا في الذنوب والآثام: ﴿قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

الكون كله - عاليه ودانيه - صامته وناطقه، أحياءه وجماداته - كله خاضع لأمر الله، منقاد لقانون الله، شاهد بوحدانيته وعظمته، ناطق بآيات علمه وحكمته، دائم التسبيح بحمده، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

إن تسبيح الكون لله وسجوده له، حقيقة كبيرة، عميت عنها أعين، وصمت عنها آذان، ولكنها تجلت للذين ينظرون بأعين بصائرهم، ويسمعون بأذان قلوبهم، فإذا هم يرون الوجود كله محراباً، والعوالم كلها ساجدة خاشعة، ترتل آيات التسبيح والثناء على العزيز الحكيم، الرحمن الرحيم: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمْلُهُمْ بِالْغُدُوءِ وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]. ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ① له، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ② تَحِيَّ - وَيُمِيتُ ③ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ④ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ⑤ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ⑥ [الحديد: ١-٣].

الإيمان بالنبوة ليس بالأمر العجيب بعد الإيمان بكمال الله وحكمته ورحمته ورعايته للكون وتديره للعالم، وتكريمه للإنسان، بل هذا الإيمان فرع عن ذلك ولا بد، فما كان الله ليخلق الإنسان، ويسخر له ما في الكون جميعاً، ثم يتركه يتخبط على غير هدى، بل كان من تمام الحكمة أن يهديه سبيل الحياة الدنيا، وأن يهيئ له زاده الروحى، كما هيأ له زاده المادى، وأن ينزل الوحي من السماء ليحيى به القلوب والعقول، كما أنزل من السماء ماء لتحيى به الأرض بعد موتها.

ما كان من الحكمة أن يترك الإنسان لنفسه؛ تتنازع الفرد قواه وملكاته المختلفة؛ وتتنازع الجماعة أهواؤها ومصالحها المتضاربة، وإنما كانت الحكمة فى عكس هذا. كانت الحكمة فى إرسال رسله بالبينات، ليهدوا الناس إلى دين الله ويقيموا الموازين بالقسط بين العباد.

ولهذا استنكر رسل الله من قومهم أن يعجبوا لإرسال الله رسولا عنه يبلغهم بأمره ونهيه، فيقول نوح: ﴿يَقَوْمِ لَيْسَ بى ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَأُنصِّحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف: ٦١-٦٣].

ويقول القرآن ردًا على المشركين الجاحدين برسالة محمد ﷺ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

والهداية بالوحي هى أعلى مراتب الهداية التى منحها الله للإنسان، فهناك الهداية الفطرية الكونية، وهى التى عبر عنها أحد العلماء حين قيل له: متى عقلت؟ قال: منذ نزلت من بطن أمى، جعت فالتقمت الثدى وتأملت فبكيت !!

وهذه الهداية ليست خاصة بالإنسان، بل تشمل الحيوان والطيور والحشرات وهى التى عبر عنها بالوحي فى شأن النحل ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]. بل هى منبثة فى أجزاء الكون كله: فى النبات الذى يمتص غذاءه من عناصر الأرض بنسب محدودة وقدر معلوم،

وفي الكواكب التي يسير كل منها في مداره الذي لا يتعداه، وفق قانون لا يتخطاه ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي هَآ أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]. فهي هداية عامة للمخلوقات جميعها، ولهذا ذكر لنا القرآن جواب موسى ﷺ لفرعون قال: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ۖ﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩-٥٠]. وقال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ۚ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۚ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۚ﴾ [الأعلى: ١-٣].

والمرتبة الثانية: للهداية مرتبة الحواس الظاهرة كالسمع والبصر والشم والتذوق، والباطنة كالجوع والعطش والفرح والحزن، وهذه المرتبة أرقى من الأولى، ففيها نوع من الانتباه، وقدر من الإدراك وإن كانت لا تسلم من الخطأ، كما نرى في السراب الذي يحسبه الرائي ماء، وفي الظن الذي يظنه ساكنا وهو متحرك.

والمرتبة الثالثة: هداية العقل بملكاته وقواه المختلفة، وهو أرقى رتبة من الحواس وإن كان كثيرًا ما يعتمد على الحس في الحكم والاستنباط، وبذلك يتعرض له في ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج، والعقل في عملياته العليا من خصائص الإنسان الذي تفرد بها عن الحيوان.

والمرتبة الرابعة: هي هداية الوحي، وهي التي تصحح خطأ العقل، وتنفي وهم الحواس، وترسم الطريق إلى ما لا سبيل للعقل أن يصل إليه وحده، وترفع الخلاف فيما لا يمكن أن تتفق عليه العقول.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

الإيمان بالآخرة:

هذا ملخص قصة الحياة والإنسان، أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شىء بعد هذا، أو كما عبر القرآن عن قوم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

إذن فما سر هذا الشعور الخفى، والوجدان الكامن الذى يغمر فطرة الإنسان من قديم الزمن، بأنه لم يخلق لمجرد هذه الحياة، ولتلك المدة القصيرة؟ وما سر الشعور بأن الإنسان فى هذه الدنيا غريب أو عابر سبيل وأنه ضيف يوشك أن يرتحل إلى دار إقامة؟

هذا الشعور الذى رأيناه عند قدماء المصريين فحنطوا - استجابة له - جثث الموتى، وبنوا الأهرام؛ ولذا ظهرت آثاره فى أمم شتى بأساليب مختلفة.

يقول الشيخ محمد عبده: «اتفقت كلمة البشر موحددين ووثنيين ونيبين وفلاسفة - إلا قليلا لا يقام لهم وزن - على أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن، وأنها لا تموت موت فناء - أى زوال مطلق - وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء، وإن اختلفت منازعتهم فى تصوير ذلك البقاء، وفيما تكون فيه، وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه، فمن قائل بالتناسخ فى أحياء البشر أو الحيوان على الدوام، ومن ذاهب إلى أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال، ومنهم من قال: إنها إذا فارقت الجسد عادت إلى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها. ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثرية ألطف من هذه الأجسام المريئة .. ».

«هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة والمنبعث فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها، وحشيتها ومستأنسها، باديها وحاضرها، قديمها وحديثها، لا يمكن أن يعد صلة عقلية، أو نزعة وهمية، وإنما هو من الإلهامات التى اختص بها هذا النوع. فكما ألهم الإنسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا - وإن شذ أناس عنه أنكروا ذلك أو شكوا فيه - كذلك قد ألهمت العقول، وشعرت النفوس، أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان فى الوجود، بل الإنسان ينزع هذا الجسد، كما ينزع الثوب عن البدن، ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر، وإن لم يدرك كنهه.

ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء، يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طريق غير محصورة، شيقة إلى الذات غير محدودة، ولا واقعة عند غاية، مهياة لدرجات من الكمال لا تحدها أطراف المراتب والغايات».

ثم كيف يسيغ العقل أن ينفض سوق هذه الحياة وقد نهب فيها من نهب وسرق فيها من سرق، وقتل فيها من قتل، وبغى فيها من بغى، وتجبر من تجبر، ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابا، بل تستر واختفى فأفلت ونجا؟!.

وفي الجانب الآخر: كم أحسن قوم، وضحوا جاهدين، ولم ينالوا جزاء ما قدموا، إما أنهم كانوا جنودا مجهولين، أو لأن الحسد والحقد جعل الناس يتنكرون لهم بدل أن يعرفوا فضلهم، أو لأن الموت عاجلهم قبل أن ينعموا بثمره ما عملوا من خير. وكم من قوم دعوا إلى الحق واستمسكوا به ودافعوا عنه، فوقف الظالمون في طريقهم، وأوذوا وعذبوا واضطهدوا وشردوا، وسقطوا صرعى في سبيله، وأعداؤهم الطغاة في أمن وعافية، بل في ترف ونعيم.

ألا يسيغ العقل - الذى يؤمن بعد بالآله الواحد - بل يطلب أن توجد دار أخرى يجزى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؟ هذا ما تنطق به الحكم السارية في كل ذرة في السماوات والأرض: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيشِ ۚ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٢٨] إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٩﴾ [الدخان: ٣٨-٤٠]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [٢٧] أَمْ جَعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ [ص: ٢٧-٢٨].

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [٢١] وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ [الجاثية: ٢١-٢٢].

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَنَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَعَا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١] .

أما بعث الأحياء بعد الموت فليس بعزيز على من خلقهم أول مرة: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَنَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧] .

بهذا الخلق الأول يستدل عليه بمظاهر قدرة الله في عالم النبات: ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنَبَّتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥-٧] .

ويستدل القرآن على إمكان البعث بخلق الأجرام العظيمة في هذا الكون من السماوات والأرض، وهي - لمن تأمل - أكبر من خلق الناس وأعظم: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَنَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١] ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَنَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣] .

المبحث السابع

علاقة الإيمان بالعمل

معرفة الله والخضوع له، والإعداد للقاءه والرهب من عقابه، لباب الدين وروح شرائعه. نعم في تعاليم الدين نظم خلقية واجتماعية كثيرة، تتناول الحياة الخاصة والعامة من القاع إلى القمة. لكن هذه التعاليم كلها بناء دعامته العقيدة أو هي أعمال غايتها وجه الله، فإذا انهارت الدعامة أو اختلفت الغاية فقدت هذه النظم الخلقية والاجتماعية طابعها المميز، وقيمتها النفسية.

الدين قبل كل شيء: «شعور بوجود الله، واعتراف بحقه في حكم عبادته، ووضع المبادئ التي ينطلقون منها، والحدود التي ينتهون إليها».

ومقتضى هذا الشعور الباطن، والاعتراف الظاهر، أن نفعل ما يوصينا الله به، لا على أنه خير فقط، بل على أنه «انقياد لله - وقيام بحقه .. إلى جانب ما فيه من خير ذاتي»..

إن الوجودى قد يرى الصدق فضيلة في المعاملات التجارية وغيرها. ولكنه لا يعبد الله، حين يصدق مع غيره، فهو لا يعرف الله، ولا يؤمل فيما عنده !!..

أما المؤمن، فالصدق عنده طاعة لله الذى قال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

فهو يصدق أو لا إيماناً بالله، ثم هو يرتفع بإيمانه هذا على فضيلة الصدق ..

إن الأعمال الصالحة كلها، نفسية كانت أو اجتماعية، عندما تكون جزءاً من تعاليم الدين، أو جزءاً من سلوك المؤمنين، تأخذ طريقها في الحياة مقترنة بهذا اليقين السماوى، أو مصطبغة بهذه الصبغة الإلهية، فيكون الإيمان بالله هو الباعث على العمل، وتكون تقواه جل شأنه إحساساً دائماً مصاحباً .

ونحن بهذا الكلام نلفت الأنظار إلى خطورة ما شاع من مسالك بشرية مجردة تجعل الناس يتواضعون على أعراف وتقاليد قد تكون حسنة أو لا تكون، ثم يرون في الوفاء لهذه الأعراف والتقاليد الحق والفضيلة. مع أن صلتها بالإيمان مقطوعة، بل ربما لم يفكر صاحبها في الله لحظة.

وهذا الفريق من الناس قسم الدين إلى قسمين: فما كان من عقائد وعبادات طرحه جانباً وازور عنه. وما كان من معاملات ونظم احتفى به وروجه أكثر من الحديث عن قيمته!!

وقد علمت أن أى عمل أمر الله به، فإنما الجدوى من فعله ابتداءً طاعة الله والقيام بحقه^(١). أما إتيانه دون نظر إلى وجه الله فلا قيمة له، وإن صلحت به إلى حيث بعض شئون الدنيا.

إن الإيمان بالله ليس نافلة فقط في المجتمع المؤمن. إن تسبيحه وتحميده جل جلاله، يجب أن يكون شغلاً للناس، وشارة لحياتهم بالغدو والآصال.

وقد يضحك بعضهم من الحديث عن الآخرة، والجنة والنار، ويظن ذلك كلاماً فات أو أنه، أو كلاماً يتهمس به بعض الوعاظ في مواكب الموت.

والحق أن الدين يذوب ويتلاشى يوم يكون الحديث عن الآخرة مجوناً أو لغواً.

إن قوافل الأحياء يجب أن تعى بلباقة وجد أن عقيدة الجزاء الأخير ليست هزلاً، وأن البعد بنشاط الحياة عن الإيمان بالله واليوم الآخر بُعد عن الصراط المستقيم، وجرى وراء سراب خادع.

ونحن المسلمين يجب أن نشوب نشاطنا كله بمعالم هذا الإيمان بالحق، وألا تجرفنا تيارات الحضارة المادية التي تسود الشرق والغرب، تلك الحضارة التي ذهلت عن الله، وتجاهلت وحيه، وآثرت أن تحيا وفق هواها، وأن تأخذ من دينه ما لا يصادم هذه الأهواء.. ثم تطرح جانباً أهم شعب الإيمان. والأمر بحاجة إلى أولى الألباب يتداركونه بصدق الفهم، ولطف العلاج.

(١) محمد غزالي: عقيدة المسلم، القاهرة، دار الدعوة، ١٩٩٠ م، ص ١٣٩.

وعلينا معشر المؤمنين أن نصلح شأننا قبل أن نطالب غيرنا بتغيير نفسه وفكره، إن الإيمان أعظم الفضائل في هذا الوجود، وهو عنصر غال، ما دخل في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه .

بيد أن الإيمان الذي يستحق هذه النعوت له نواح عديدة، فهو صلة بالله قائمة على الخشوع والإخبات، وهو صلة بالنفس قائمة على التأديب والضبط، وهو صلة بالمجتمع قائمة على العدل والرحمة، وهو صلة بالكون قائمة على السيادة والارتفاق .

ويجب أن ننصف الإسلام، فنعلم أنه دين أعلى قدر الإنسان، ورفع شأن الحياة، لا بعبادتها والتفاني فيها، كما يفعل الجاهل، بل بضبط رسالة الإنسان فيها، وحسن إفادته منها.

الإنسان - في تصوير الإسلام - عبد لله وحده، يعرفه ويتقيه! سيد لهذا الكون - يرتفعه، ويستخدمه، ويستغل قواه. أخ لنظرائه من الناس يتعاون معهم على الخير، ويعاشرهم بقانون العدل والرحمة.

صلة الإيمان كصلة الخلق بالسلوك:

فإذا آمن الإنسان بالله العظيم، وأيقن باليوم الآخر، وصدق ما جاء به المرسلون، دفعه ذلك - لا محالة - إلى استرضاء ربه، والاستعداد للقاءه، والاستقامة على صراطه. كما أن الشجاع في ميادين الخطر يقدم، والكريم في مواطن البذل ينفق، والصادق في أداء الحديث يتحرى الحق .. إلخ. وعسير - بل مستحيل - أن يهبط الإنسان بحقيقة الدين عن هذا المستوى، أو أن يفهم من كتاب الله ورسوله ﷺ ما يغير ذلك .

بيد أن أعداء الإسلام - وقد عجزوا عن هزيمته في ساحات القتال - لم تعيهم الحيل لسحقه في عقر داره، فدرسوا على المسلمين من يصور لهم الإسلام كلمة لا تكاليف لها، وأمانى لا عمل معها، وفي ظل هذا الفهم المعوج ترى المسلم واليهودى والقبطى يتعاضون سنين عددا، فلا تستطيع أن تميز أحدهم عن الآخر في شيء، الكل لا يدخل مسجدا، ولا يقيم فريضة، ولا يحترم لله شعيرة، والكل يشرب الخمر، ويأكل الربا، ويفجر بالأعراض. وغاية ما بينهم من فوارق، أن اليهودى يقدس يوم السبت، وقد يذهب النصرانى إلى كنيسة خلصة. أما ذلك المسلم المزعوم فليس يربطه بالإسلام إلا اسم سجل في شهادة الميلاد فحسب.

إن الله - عز وجل - جعل العمل رسالة الوجود ووظيفة الأحياء وجعل السباق في إحسانه سر الخليقة ودعامة الحساب ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الملئ: ٢].

وما من آية في كتاب الله ذكرت الإيمان مجرداً، بل عطفت عليه عمل الصالحات، أو تقوى الله، أو الإسلام له، بل أصبحت صلة العمل بالإيمان آصرة لا يعرفونها وهن. فإذا عقدت مقارنة بين الهدى والضلال، جعل الإيمان والعمل جميعها في كفة، وجعل الكفر في الكفة الأخرى. ﴿وَمَا يَسْتَوِ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ [غافر: ٥٨].

وكثيراً ما يشار إلى الإسلام وحقيقته الشاملة بمظاهر عملية واضحة محدودة: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ ﴿أَوْ طَعَدَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ - ١٦]. بل إن العلامة التي ينصبها القرآن دليلاً على فراغ النفس من العقيدة، وخراب القلب من الإيمان، هي في النكوص عن القيام ببعض الأعمال الصالحة ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ ﴿فَإِذَا دُعِيَ إِلَى الْيَتِيمِ﴾ ﴿وَلَا تَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ - ٣].

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

ثم ما الذي يوزن في الدار الآخرة؟ أليست الأعمال التي تميل بالإنسان إلى النعيم أو الجحيم أو الدعاوى والمزاعم؟ ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨ - ٩].

إننا نعرف تاريخ أمم هلكت بسوء عملها، ونعرف أن الله نقم على قوم لوط - مثلاً - لارتكابهم الفاحشة، وعلى قوم شعيب - مثلاً - لبخسهم المكيال والميزان، وقد عرفنا مصائر أولئك الفاسقين.

فهل أمتنا - وحدها - هى التى تريد أن ترتكب السيئات، دون حذر أو وجل؟ ليس الإسلام بدعاً من الشرائع السابقة، فيوجب الإيمان دون عمل .

بل إن القرآن الكريم ليقتص علينا عبر السابقين لتتعض منها، ثم لنسمع قول الله بعد ذلك: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ١٣-١٤].

هكذا نمتحن وثرأقب تصرفاتنا، ويكلفنا الله بالإيمان والعمل جميعاً ثم ينظر وفاءنا بما حملنا من أعباء !.

وقد خاطب الله أبناء آدم - قاطبة - بهذه الحقيقة السافرة، وأفهمهم - فى جلاء وقوة - أن نجاتهم فى الصلاح والتقوى، لا فى النفاق والدعوى: ﴿ يَبْنِىْ ءَادَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِىْ فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦].

وعندما اهتدى أولو الألباب إلى الحق، وأعلنوا إيمانهم وهتفوا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيْمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وعندما تضرعوا يطلبون من الرحمن أن يصفح عن زلاتهم: ﴿ رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وعندما تطلعوا إلى النصر والتمكين فى الأرض، والفوز والرضوان فى الآخرة ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

مع هذه الحرارة فى الدعاء، والإخلاص فى التوجه، أعلن الحق أن استجابته مقرونة بالعمل وحده وأن الكلام - فحسب - لا يروج، وأن تحقيق هذا الرجاء مرهون بجهد

وتضحيات وتكاليف: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِّي بِعَعْضِكُم مِّنْ بَعْضٍ ۖ فَأَلَّزِينَ هَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا مِّنْ دِينِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَلَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أَدْخِلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

إن النصوص الهادية إلى تلازم الإيمان والعمل كثيرة، يزخر بها القرآن وتستفيض بها السنة، وتقرر الحق في نصابه، وترسم لكل مسلم غايته، وتخط له مكانته، وتقرع الآذان بذلكم الأمر الحاسم:

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

المبحث الثامن

ثمرات الإيمان الصحيح

ثمار الإيمان القلبي:

وإذا عرف الإنسان ربه عن طريق العقل والقلب؛ أثمرت له هذه المعرفة ثماراً يانعة، وتركت في نفسه آثاراً طيبة، ووجهت سلوكه وجهة الخير والحق والسمو والجمال.

وهذه الثمار نجمل بعضها فيما يلي:

أ- تحرر النفس من سيطرة الغير، وذلك لأن الإيمان يقتضى الإقرار بأن الله هو المحي، المميت، الخافض، الرافع، الضار، النافع.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سَتَكُنَّ ثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَنَذِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[الأعراف: ١٨٨]

إن الذى عوق البشرية عن النهوض، وحال بينها وبين الرقى هو الخضوع للاستبداد، سواء أكان هذا الاستبداد سياسياً للحكام والرؤساء، أم استبداداً كهنوتياً لرجال الدين والكهنوت. وبتقرير الإسلام لهذه الحقيقة، قضى على هذا الأسر وأطلق حرية الإنسان من سيطرة هؤلاء المستبدين التى لازمته قروناً طوالاً.

ب- والإيمان يبعث فى النفس احتقار الموت والرغبة فى الاستشهاد من أجل الحق، إذ إن الإيمان يوحى بأن واهب العمر هو الله، وأنه لا ينقص بالإقدام، ولا يزيد بالإحجام، فكم من إنسان يموت وهو على فراشه الوثير، وكم من إنسان ينجو وهو يخوض غمرات المعارك والحروب.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ كَتَبَ مُّوَجَّلًا ۚ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

﴿وَطَافَةُ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ج- والإيمان يقتضى الاعتقاد بأن الله هو الرزاق، وأن الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهية.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

﴿وَكَايْنٍ مِنَ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا إِيَّائَكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

[العنكبوت: ٦٠]

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

[العنكبوت: ٦٢]

وإذا سيطرت هذه العقيدة على النفس تخلص الإنسان من رذيلة البخل والحرص والشدة، والطمع، واتصف بفضيلة الجود، والبذل، والسخاء، والألفة، والعفة، وكان إنساناً مأمول الخير مأمون الشر.

د- والطمأنينة أثر من آثار الإيمان: أى طمأنينة القلب، وسكينة النفس. ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وإذا اطمأن القلب، وسكنت النفس - شعر الإنسان ببرد الراحة، وحلاوة اليقين، واحتمل الأهوال بشجاعة، وثبت إزاء الخطوب مهما اشتدت، ورأى أن يد الله ممدودة إليه، وأنه القادر على فتح الأبواب المغلقة، فلا يتسرب إليه الجزع، ولا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلاً.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُورِثُواهُمْ الظُّلُمَاتُ ۗ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

هـ- والإيمان يرفع من قوى الإنسان المعنوية، ويربطه بمثل أعلى، وهو الله مصدر الخير والبر والكمال.

وبهذا يسمو الإنسان عن الماديات، ويرتفع عن الشهوات، ويستكبر على لذائذ الدنيا، ويرى أن الخير والسعادة في النزاهة والشرف، وتحقيق القيم الصالحة، ومن ثم يتجه المرء تلقائياً لخير نفسه، وخير أمته، وخير الناس جميعاً.

وهذا هو السر في اقتران العمل الصالح بجميع شعبه وفروعه بالإيمان، إذ إنه الأصل الذي تصدر عنه وتتفرع منه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩].

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]. ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]. وإذا اهتدى القلب، فأى شىء من الخير يفوته؟!

و- والحياة الطيبة يعجل الله بها للمؤمنين في الدنيا قبل الآخرة. وتتمثل هذه الحياة في ولاية الله للمؤمن، وهدايته له ونصره على أعدائه، وحفظه مما يثبت له، وأخذه بيده كلما عثر، أو زلت به قدم، فضلاً عما يفيضه عليه من متاع مادي، يكون عوناً على قطع مرحلة الحياة في يسر.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا
 اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ
 خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾

[غافر: ٥١]

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

[الأعراف: ٩٦]

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّنْسَىٰ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ

عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وقد انتهى العالم إلى هذه الحقائق الإيمانية؛ ولا يتسع المجال لإثبات شهادات كبار العلماء، وتسجيل ما شاهدوه. ونكتفى هنا بتسجيل ما نشر بإحدى الصحف المصرية قالت الصحيفة تحت عنوان «العلماء يلجأون إلى الدين لعلاج مرضى الأمراض العقلية»:

عزاء وسلوانا لأولئك الذين تشبثوا بدينهم، ولم يتزعزع إيمانهم في أحلك لحظات المدنية وأنصعها، أقصد تلك اللحظات التي يتشدد فيها دعاة النظريات العتيدة، وفي مقدمتها نظرية النشوء والارتقاء «لداروين» بأن الدين بدعة، وبأن الإنسان يقف وحده في هذا الكون، كما زعم «جولييان هاكسلي» جد الكاتب الفيلسوف البريطاني الكبير «الدوسى هاكسلي». إن علماء الأمراض العقلية، لا يجدون اليوم سلاحاً أمضى، وأبعد فاعلية لعلاج مرضاهم من الدين والإيمان بالله والتطلع إلى رحمة السماء.. والتشبث بالرعاية الإلهية.. والالتجاء إلى قوة الخالق الهائلة عندما يتضح عجز كل قوة سواه..!

لقد بدأت التجربة في مستشفى بولاية نيويورك، وهو مستشفى خاص بمرتكبي الجرائم من المصابين بالأمراض العقلية. بدأت التجربة بإدخال الدين كوسيلة جديدة للعلاج بجانب الصدمات الكهربائية لخلايا المخ، والعقاقير المسكنة

والمهدة للأعصاب. وكانت النتيجة رائعة .. إن أولئك الذين تعذر شفاؤهم . بل فقدوا الأمل فيه انتقلوا من عالم المجانين إلى عالم العقلاء .. أولئك الذين ارتكبوا أفعالجرائم، وهم مسلوبو الإرادة، باتوا يسيطرون على إرادتهم وتفكيرهم وتصرفاتهم، ويذرفون الدمع ندما، وكلهم أمل في رحمة السماء ومغفرة الله.

واستسلم العلماء، ورفعوا أيديهم إلى السماء، يعترفون بضعفهم، ويعلنون للدنيا أن العلم يدعو إلى الإيمان، وليس أبداً إلى الإلحاد^(١).

من ثمرات التوحيد الخالص:

وإذا كان التوحيد حقيقة لا مرأ فيها، توحيد ربوبية وتوحيد إلهية وتوحيد الله في أسمائه وصفاته، مع الجزم أنه ليس كمثله شيء، فإن هذا التوحيد له ثمراته التي لا ينكرها إلا جاحد وأهم ثمراته هي:

١- الاطمئنان وشكر الواحد ا حد المنعم:

فالواحد الذي خلق الإنسان من تراب وجعله بشرا وأمده بالسمع والبصر والأفئدة، لا ينبغي أن يناله من عبده أقل من الشكر، فشكر المنعم دليل على ثبات الإيمان، ثباتا تقر معه في القلب كل عوامل الاطمئنان، فعندما تطمئن النفس إلى أن قدرها بيد الديان، تنصرف إليه، ولا تعتمد إلا عليه، تهون أمامها الصعاب، ولا تذلل عندئذ لأعتى الرقاب، لأنها بالاطمئنان تشعر أنها بالديان أكبر من قدرات كل بنى الإنسان، فهل اطمأن الإنسان وحاول بعد هذا شكر الديان؟ كلا ! وإن حدث الشكر فهو من أقل القليل، وإن حدث الشكر من الكثيرين فإنه لا يكون بالحجم الواحد وإنما يكون قليلا قليلا. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

العبد لا يشكر عندما يفتقر ويظن الثروة هي المال وحده من دون السمع والأبصار والأفئدة، والعبد يسخط عندما يفقد عينا أو قدما أو ذراعاً، وينسى أن الله

(١) سيد سابق: العقائد الإسلامية، القاهرة، الفتح للإعلام العربى، ١٩٩٢ م، ص ٧٨.

أبقى عليه نعمة العين الأخرى أو القدم الأخرى أو الذراع الأخرى، والعبد يحدد عندما يفقد كل السمع أو البصر وينسى الحياة ذاتها، وما يتمتع به الإنسان من جراء وجود باقى الأعضاء، وينسى أن من يؤخذ منه شيء يعوضه الله لا محالة فى شيء آخر.

ولنسأل أنفسنا، حتى نشكر الله مطمئنين، أفاقد البصر أم حاد البصر الذى لم يقع بصره على كلمة واحدة من كتاب الله، ولم يترك سوقا تغشاها النساء إلا وغشاها لإمتاع عينيه بما لا حق له فيه، ولم يسمع عن دار هو إلا وخف إليها، وما إلى ذلك من أمور تعف الأقلام عنها، وقس على ذلك من يغشى بقدميه أماكن المنكرات فى أى مكان، ولا يرى غضاضة فى أن يسمع الأذان ولا يستجيب لهدى الرحمن ركوعا وسجودا يطهرانه من كل الأدران، أفهذا أفضل أمّن لا يتمتع بقدمين ولكنه يُغبر جبهته بالسجود شكراً لله على نعمه الأخرى^(١).

إن شكر الله واجب حتمى على كل موحد: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ ﴾ [إبراهيم: ٦]. ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]. ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ [القمر: ٣٥]. تلك هى الحقائق ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. أما الابتلاء، فهو يظهر معدن الإنسان ومدى استحقاقه لنعم الديان ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١].

٢- عدم الركون إلى متع الحياة الدنيا:

عندما يستقر التوحيد فى الموحدين، فإنهم يهتدون بهدى رب العالمين، يجدون أنفسهم، أقرب إلى نعيم الآخرة منهم إلى نعيم الدنيا، فشتان بين النعيمين: إن نعيم الدنيا زائل، بينما نعيم الآخرة مقيم، ونعيم الدنيا قد يداخله الحرام، أما نعيم الآخرة فهو كنعيم أبدى مقيم، رزق من عند الله، وهل يرزق الحق إلا حقاً وحلالاً؟ ونعيم الدنيا

(١) محمد شتا أبو سعد : قل هو الله أحد، الرياض، سلسلة مستقبل التشريع الإسلامى، ١٤١٢ هـ، ص ١٦.

يغلب عليه الطابع الحسى المحدود، في حين أن نعيم الآخرة يتحقق فيه الجانب الحسى المطلق من خلال المتعة المعنوية والروحية والصفاء اللانهائى الذى يكون فيه الناس كالملائكة، ونعيم الدنيا منوط بالكد، ونعيم الآخرة هو ثمرة الإخلاص فى الدنيا ويأتى الإنسان بمجرد أن يخطر على باله، كذلك فإن نعيم الدنيا نعيم حطام بلا رضوان أما نعيم الآخرة فهو نعيم الحقيقة، فى دار الحيوان الأبدى، ونعيم الدنيا كحطام قد يورث العذاب فى الآخرة وليس هذا شأن نعيم الآخرة.

والعاقل يستشف ما تقدم وأكثر منه من وصف الله تعالى لمتع الدنيا بقوله تعالى: ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

لذا فإن الموحد لا يركن إلى متاع الغرور، بل يطمع فى وعد الله، ولا يغتر بمتع هذه الحياة ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [فاطر: ٥].

ليس يكفى الموحد إذن أن يقول: آمنت، ثم ينصرف بكليته إلى متع الحياة الدنيا، تفتنه حتى يصير موحدًا بالاسم لا بالقلب والفؤاد، مسلمًا بالشكل لا بالجوهر، مؤمنًا بالكلمة لا بالتقوى والعمل، وإنما يجب على صاحب عقيدة التوحيد أن يسمو إلى مستواها، عملاً وإخلاصاً، طاعة وامثالاً، بحثاً عن الحق ونأيًا عن الباطل، صدقًا لا كذبًا ﴿ أَحْسَبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ [العنكبوت: ٢-٣].

إن الدين هو السلاح الوحيد فى يد الموحد، به يشق دروب الصعاب، ويمهد به جبال المشكلات، ويرتفع به فوق مستوى المحن، إنه عاصمه من الانزلاق إلى

هاوية الضلال، ومانعه من الانحراف في سلك أهل المنكرات، فالحياة ليست بطونا تملأ، ولا ملذات تغتنم، ولا سيئات تجترح، ولا أموالا تنهب، ولا حقوقا تغتصب، ولا رياء تطول به قصار الرقاب، ولا نقاقاً تبتز به الأموال، ولا ترفاً يشيع معه الفسق، ولا غيبوبة سكر أو تخدير يزيد معه الإثم، إنما الحياة عقيدة تهيمن على كيان الإنسان، فتعصمه من الخطايا والآثام، مهما كابد في سبيل ذلك وواجهته أعاصير الباطل وأنواء الحرام، وهى عقيدة تخلق رجالاً عابدين شاكرين ومؤمنين موحددين، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]. وكمن يستجيبون لتحذير الله تعالى في قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. وكمن لا يطغون مع الثروة لأنهم يعلمون حقيقة قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿١﴾ إِنَّ رَأَاهُ أَشْتَعَى ﴿٢﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴿٣﴾﴾ [العلق: ٦-٨]. وكمن يثقون أن زوال الثروة بقدر إنها هو لحكمة لا يعلمها إلا الله ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

٣- التوكل على الله وابتغاء رحمته كدليل قاطع على إخلاص التوحيد :

التوحيد يبحث الحباث من النفوس؛ فتصلح، فإن صلحت أخلصت، فإن أخلصت توكلت على الله وحده ولم تبتغ رحمة أحد سواه، لأن صلتها بالله تكون قد قامت على الحقيقة، التى يدركها كل إنسان بفطرته ناهيك عن عقله، المهدى بأنوار الرسالة المحمدية، وهذه الصلة تحرك فى الإنسان حنينه إلى خالقه ومربيه؛ فلا يفرع عند الشدائد إلا إليه، ولا يلتمس مخرجاً من المحن إلا منه أما من استكبر فله عذاب السعير ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وفزع الإنسان إلى الديان هو فزع إلى القريب المجيب ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وهو فزع إلى من يقى الإنسان من عذاب يوم الفزع الأكبر، إنه فزع إلى القادر على كشف الضر وحده، لذا يجب أن يتسم بالاستمرار لا الوقتية، وباليقين الثابت لا بالعرضية، حتى لا يكون الإنسان ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ۚ كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢]. وهو فزع إخلاص أساسه شكر النعمة، وجوهره الاعتراف بظلم النفس، وحقيقته التوجه إلى الله ليبعده عن القوم الظالمين، والمثال الذى يبين هذا الأساس هو دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥]. وأما الجوهر المشار إليه فيمكن استظهاره من دعاء آدم وحواء في قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وللإيمان ثمرات عظيمة في: الإخلاص، والتوكل وأمن الخوف والسكينة، والفرح برحمة الله والرضا والالتزام، وهذه الأمور سيأتى تفصيلها في الفصل الثانى بحوله تعالى .